منهج الأنبياء

فى الدعوة إلى الله

تأليف الأستاذ الدكتور

محمد سالم محيسن

تخصص فى القراءات وعلوم القرآن

عضو لجنة مراجعة المصاحف بالأزهر الشريف

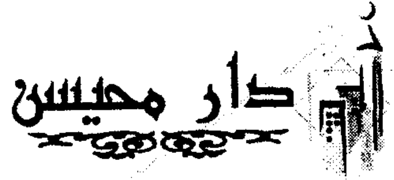
دكتوراه فى الآداب العربية

دار محيسن

للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م



للطباعة والنشر والتوزيع

٤٢ طريق النصر (الأوتوستراد)
وحدة رقم ١ عمارات امتداد رمسيس ٢
مدينة نصر - القاهرة - ت : ٢٦٣١٤١٢ (٢٠٢)
المطابع : مدينة العبور - المجمع الصناعى - وحدة ٢٠٥

رقم الإيداع : ٢٠٠٢/٨٦٦٣

الترقيم الدولى : 977- 60-76-05-X

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أرسل الرسل مبشرين ومنذرين، والصلاة والسلام على نبينا «محمد» المبعوث رحمة للعالمين..

وبعد: فقد اقتضت إرادة الله تعالى أن جعل فى مقدمة دعوة الأنبياء الدعوة إلى وحدانية الله تعالى، وصدق الله حيث قال: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ ﴾ [النحل: ٣٦].

والبشرية كلها وبخاصة: العلماء، والدعاة، والمرشدين، والمصلحين فى أمسّ الحاجة إلى معرفة المنهج الذى سار عليه الأنبياء أثناء معالجتهم لقضية الشرك، ودعوتهم إلى وحدانية الله تعالى وعبادته وحده دون غيره. لذلك فقد رأيت أن أضع كتابًا أبيّن فيه المنهج القويم الذى سار عليه «الأنبياء أولو العزم» فى دعوتهم إلى وحدانية الله تعالى وسميته:

منهج الأنبياء فى الدعوة إلى الله

فى ضوء الكتاب والسنّة

واعتمدت فى المادة العلمية لهذا الكتاب على نصوص القرآن الكريم، وسنّة الهادى البشير ﷺ.

وهدفى من وراء ذلك التأسى بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام والسير على المنهج الذى ساروا عليه، لأنه المنهج الذى هداهم إليه الله ربّ العالمين. وصدق الله حيث قال:

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (١٦٣) وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا (١٦٤) رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٦٥) ﴾ [النساء: ١٦٣ - ١٦٥].

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

وصلّ اللهمّ على سيدنا «محمد» وعلى آله وصحبه أجمعين.

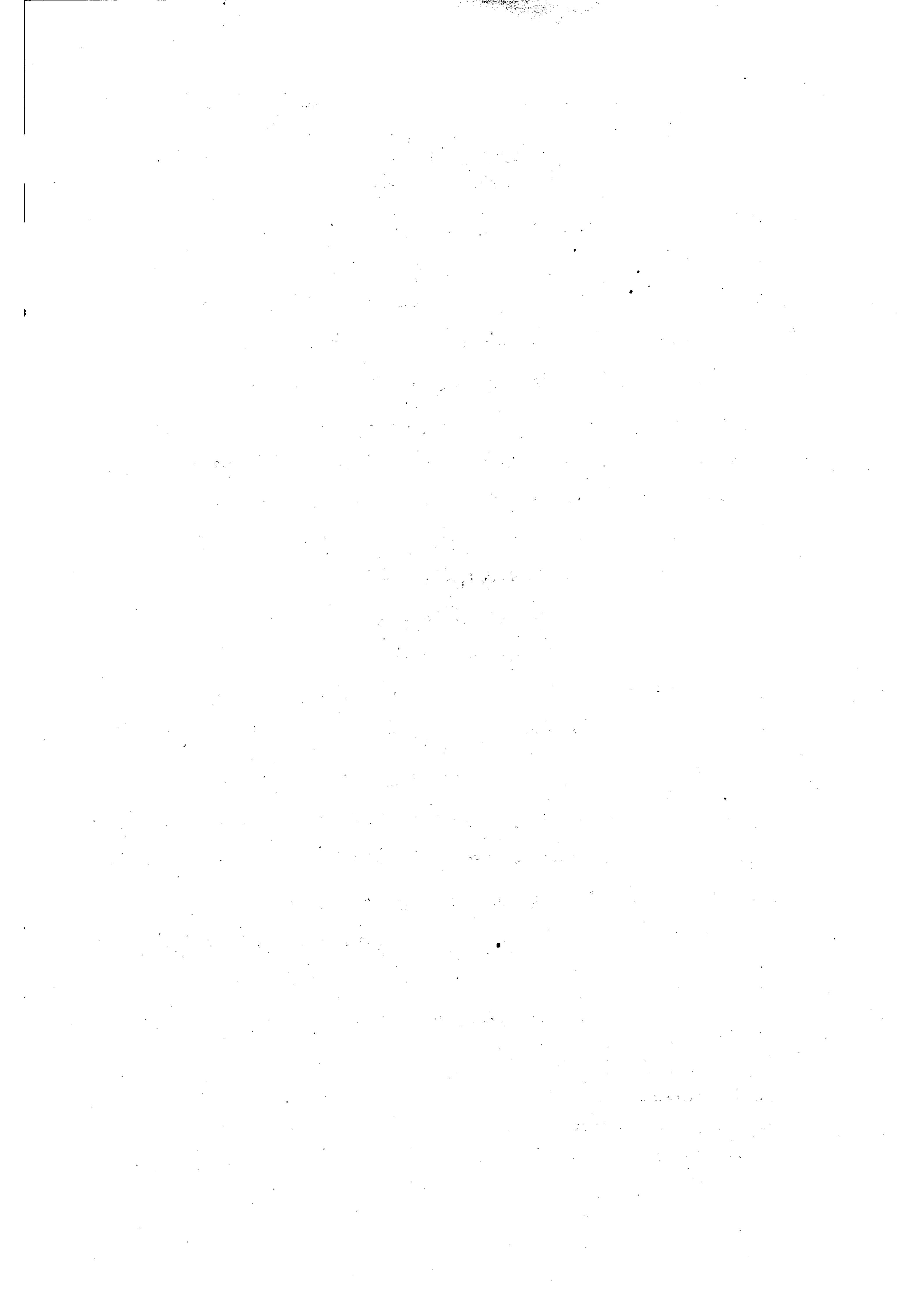
المؤلف

أ.د/ محمد محمد محمد سالم محيسن

غفر الله له ولوالديه وذريته والمسلمين

الاثنين ٩ ذو الحجة ١٤٠٧هـ

٣ أغسطس ١٩٨٧م



تمهيد

ضمنت هذا التمهيد عدة موضوعات هامة لها صلة وثيقة بمضمون هذا الكتاب، وتتمثل فيما يلى:

أ) تعريف الإسلام.

ب) أهم صفات المسلم.

ج) تعريف الإيمان.

د) أهم صفات المؤمنين.

هـ) مَنْ هم الأنبياء والرسل؟

و) الفرق بين النبى والرسول.

ز) عدد الأنبياء والرسل.

ح) أولو العزم من الرسل.

ط) عصمة الأنبياء.

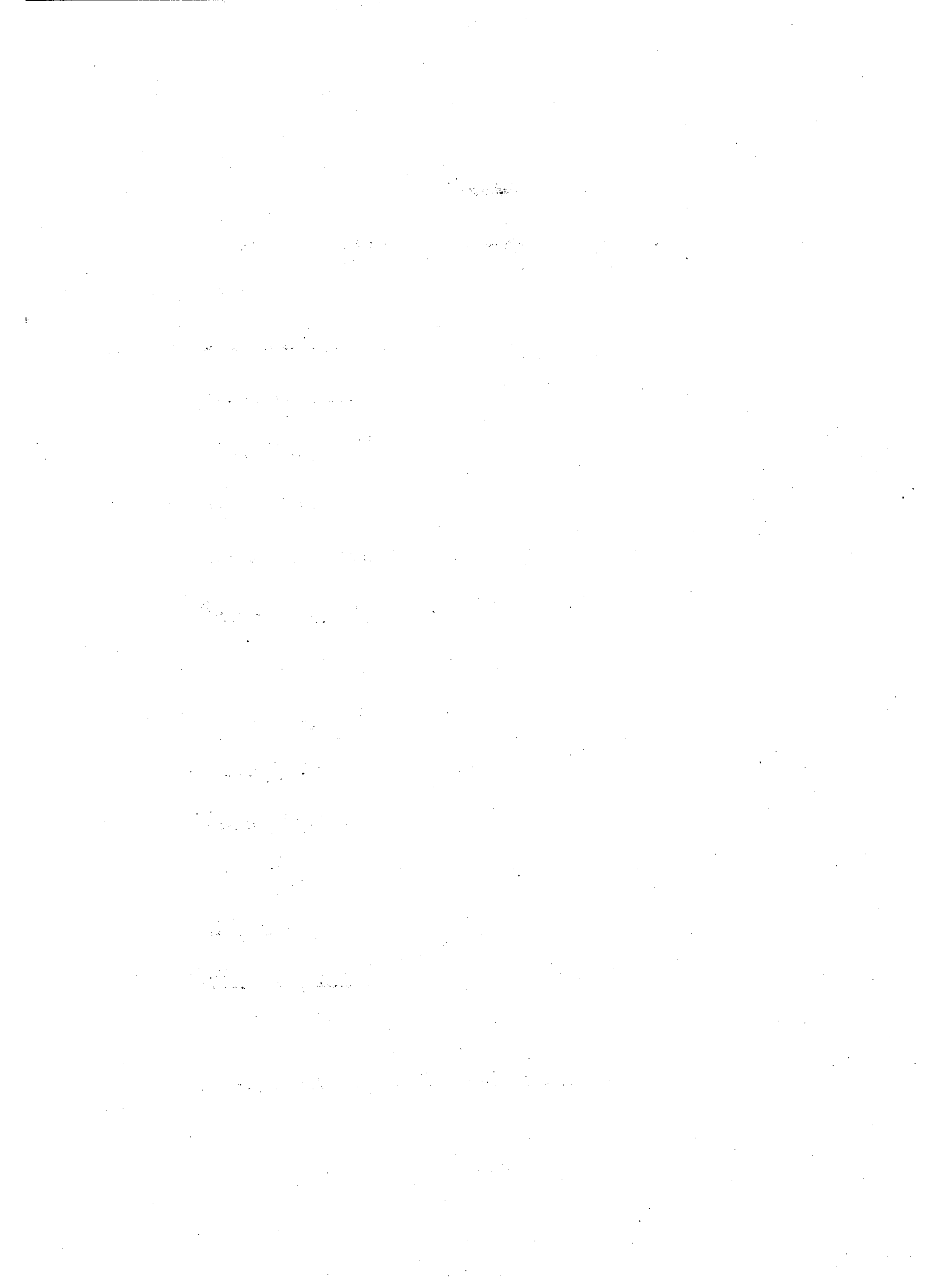
ى) خصائص النبوة.

ك) وظيفة النبوّة.

ل) معجزات الأنبياء.

م) الأنبياء قدوة للبشر.

وهذا تفصيل الكلام على هذه القضايا حسب ترتيبها:



أ) تعريف الإسلام

الإسلام لغة : الاستسلام والانقياد الظاهرى.

وشرعًا : شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان، وحج بيت الله الحرام، والدليل على ذلك الحديث التالى:

فعن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - قال:

قال رسول الله ﷺ : «بنى الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، والحجّ، وصوم رمضان» اهـ[١].

ب) أهم صفات المسلم

جاء ديننا الإسلام الحنيف بالمبادئ السامية، والأخلاق الحميدة، فما من فضيلة إلا ونبه عليها، وحث على العمل بها، وما من رذيلة إلا وأشار إليها، وحذر من الاقتراب منها، وتعاليم الإسلام كثيرة ومتعددة، وعلى المسلم الذى أكرمه الله تعالى بالإسلام أن يلزم نفسه بتعاليمه، كما عليه وجوب التمسك بها، والعمل بما جاء فيها. ونبينا «محمد» ﷺ ذكر الكثير من الصفات الفاضلة التى يجب على كل مسلم أن يتحلى بها.

وقد طوفت فى بستان النبوة، واقتطفت منه بعض الأحاديث التى تبين صفات المسلم، كما تبين ما على المسلم من حقوق وواجبات نحو أخيه المسلم:

فعن عبد الله بن عمرو -رضى الله عنهما- أن النبى ﷺ قال: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه» اهـ[٢].

وعنه - رضى الله عنه - أن رجلاً سأل النبى ﷺ : أىّ الإسلام خير؟

قال: «تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف»[٣].

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن النبى ﷺ قال: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» اهـ[٤].

---

(١) رواه البخارى، ومسلم، والترمذى، والنسائى، انظر: التاج جـ١ ص ٢٤.

(٢، ٣) رواه البخارى، ومسلم، وغيرهما انظر: التاج جـ١ ص٢٧.

(٤) رواه الترمذى، انظر: التاج جـ١ ص٢٨.

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن النبى ﷺ قال: «لا يستر عبد عبداً فى الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة» اهـ[(١)].

وعن ابن عمر -رضى الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم أخو المسلم لايظلمه، ولا يُسلمه، ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته، ومن فرّج عن مسلم كربة فرّج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة» اهـ[(٢)].

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ: «المسلم أخو المسلم، لا يخونه، ولا يكذبه، ولا يخذله، كل المسلم على المسلم حرام: عرضه، وماله، ودمه، التقوى ههنا، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم» اهـ[(٣)].

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «حق المسلم على المسلم خمس: ردّ السلام، وعيادة المريض، واتّباع الجنائز، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس» اهـ[(٤)].

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن النبى ﷺ قال: «من نفّس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر على مسلم ستره الله فى الدنيا والآخرة، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه» اهـ[(٥)].

ج) تعريف الإيمان

الإيمان لغة: التصديق بالقلب.

وشرعاً: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، والدليل على ذلك الحديث التالى:

فعن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر،

(١) رواه مسلم، انظر: رياض الصالحين جـ١ ص ١٢٥.
(٢) متفق عليه، انظر: رياض الصالحين جـ١ ص ١٢٢.
(٣) رواه الترمذى وقال حديث حسن انظر: رياض الصالحين جـ١ ص ١٢٢.
(٤) متفق عليه، وقال الترمذى: حديث حسن انظر: رياض الصالحين جـ١ ص ١٢٣.
(٥) رواه مسلم، وأبو داود، والترمذى، والنسائى وابن ماجه، انظر: الترغيب جـ٣ ص ٤١١.

ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبى ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفّيه على فخذيه، وقال: يا «محمد» أخبرنى عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن «محمداً» رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا»، قال: صدقت، قال: فعجبنا له يسأله، ويصدقه، قال: فأخبرنى عن الإيمان، قال: «أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»، قال: صدقت، قال: فأخبرنى عن الإحسان، قال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، قال: فأخبرنى عن الساعة، قال: «ما المسئول عنها بأعلم من السائل»، قال: فأخبرنى عن أماراتها، قال: «أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة، رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان»، قال: ثم انطلق، فلبثت مليّا[1].

ثم قال لى: «يا عمر أتدرى من السائل»؟

قلت: الله ورسوله أعلم.

قال: «فإنه «جبريل» أتاكم يعلمكم دينكم» اهـ[2].

د) أهم صفات المؤمن

كما أن نبينا «محمداً» ﷺ ذكر الكثير من الصفات التى يجب على المسلم أن يتمسك بها، ويعمل بها، كذلك نبه على الصفات التى يجب على المؤمن التحلى بها، والعمل بها، وهذا قبس من هديه - عليه الصلاة والسلام - فى بيان صفات المؤمن:

فعن أنس بن مالك - رضى الله عنه - أن النبى ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» اهـ[3].

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن النبى ﷺ قال: «الإيمان بضع وسبعون، أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان» اهـ[4].

---

(١) أى زمنًا طويلاً.

(٢) رواه البخارى، ومسلم، وغيرهما انظر: التاج جـ١ ص ٢٤.

(٣) رواه البخارى، ومسلم، والنسائى، انظر: التاج جـ١ ص ٢٦.

(٤) رواه البخارى، ومسلم، وغيرهما انظر: التاج جـ١ ص ٢٧.

وعن أنس بن مالك – رضى الله عنه – أن الرسول ﷺ قال: «ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله تعالى، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار» اهـ[١].

وعن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن النبى ﷺ قال:

«أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا، وخياركم خياركم لنسائهم»[٢].

وعن أبى سعيد الخدرى – رضى الله عنه – أن النبى ﷺ قال: «إذا رأيتم الرجل يتعاهد المسجد فاشهدوا له بالإيمان، فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ (التوبة: ١٨) اهـ[٣].

وعن أبى موسى الأشعرىّ – رضى الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضًا، وشبّك بين أصابعه» اهـ[٤].

وعن النعمان بن بشير – رضى الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمنين فى توادهم، وتراحمهم، وتعاطفهم، مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى» اهـ[٥].

وعن أنس بن مالك – رضى الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه» اهـ[٦].

هـ) من هم الأنبياء والرسل

الأنبياء والرسل – عليهم الصلاة والسلام –: هم أشخاص من بنى آدم اصطفاهم الله تعالى، واختصهم بحمل رسالة السماء لهداية البشرية وفقًا لمنهج سوىّ اختاره الله لكل واحد

---

(١) رواه البخارى، ومسلم، وغيرهما انظر: التاج جـ١ ص ٢٦.
(٢) رواه أبو داود، والترمذى، انظر: التاج جـ١ ص ٢٨.
(٣) رواه الترمذى، انظر: التاج جـ١ ص ٢٨.
(٤) متفق عليه، انظر: رياض الصالحين ص١١٩.
(٥) متفق عليه، انظر: رياض الصالحين ص ١٢٠.
(٦) متفق عليه، انظر: رياض الصالحين ص١٢٣.

منهم، وهذا المنهج الذى يكلف النبى والرسول بتبليغه من اتبعه فاز بسعادة الدنيا والآخرة، ومن حاد عنه خسر الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين، وصدق الله حيث قال:

﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة:٢١٣].

وهؤلاء الأنبياء والرسل يتلقون تعاليم الله تعالى بواسطة الملَك المكلف بذلك، وهو المسمَّى بالوحى وصدق الله حيث قال:

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الشورى: ٥١].

و) الفرق بين النبى والرسول

فإن قيل: هل هناك فرق بين النبىّ والرسول؟

أقول: نعم، فإذا كان المنهج الذى يكلف به «النبى» خاصًا به، بمعنى أنه أمر من قبل الله تعالى بأن يعمل بهذا المنهج وحده دون أن يؤمر من قبل الله أيضا بتبليغ هذا المنهج إلى من سواه من بنى قومه.

إذا كان الأمر كذلك فالموصوف بهذه الحالة يسمّى نبيًا فقط، وبناء على ما تقدم يمكننى أن أقول: النبىّ هو الذى يوحى إليه بمنهج خاص ليعمل هو به دون أن يُكلّف بتبليغه إلى غيره.

أمّا إذا كان المنهج الموحَى به إلى النبىّ مقرونًا بطلب تبليغه إلى قومه؛ فالموصوف بهذه الحالة يسمّى نبيًا رسولاً.

وبناء على ما تقدم أقول: النبى الرسول: هو الذى يوحى إليه بمنهج خاص ليعمل هو به وليبلغه إلى من بعثه الله فيهم، وحينئذ تكون رسالته رسالة خاصة.

من هذا يتبين أن كل رسول نبيّ، وليس كل نبيّ رسولا. والرسالة الخاصة جاء بها جميع الرسل - عليهم الصلاة والسلام - عدا نبينا «محمد» ﷺ إذ رسالته عامة. يوضح ذلك قول الله تعالى:

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾ [يونس:٤٧].

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [إبراهيم:٤].

وقوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف:٢٣].

ونبينا «محمد» ﷺ رسالته عامة لأنه أمر بتبليغها إلى كافة الخلق، يؤيد ذلك قول الله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾

[سبأ:٢٨]

كما أنه - عليه الصلاة والسلام - هو خاتم النبيين والمرسلين فلا نبى بعده، ورسالته باقية مادامت السماوات والأرض، يؤيد ذلك قول الله تعالى:

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴾ [الأحزاب:٤٠].

ز) عدد الأنبياء والرسل

فإذا قيل: نريد بيان عدد الأنبياء والرسل - عليهم الصلاة والسلام -. أقول: اقتضت إرادة الله تعالى منذ أن هبط «آدم» - عليه السلام - إلى الأرض أن يرسل من حين إلى آخر الأنبياء والرسل ليبلغوا رسالة الله تعالى، وينشروا العدل بين الناس. والذى يفهم من مدلول «القرآن» أن عدد الأنبياء والرسل كثير، إلاّ أن بعضهم لم يرد له ذكر فى «القرآن» كما قال تعالى:

﴿ وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً ﴾ [النساء:١٦٤].

أما الأنبياء والرسل الذين ورد ذكرهم فى «القرآن» فعددهم خمسة وعشرون، وهم: آدم - إدريس - نوح - هود - صالح - إبراهيم - لوط - إسماعيل - إسحاق - يعقوب - يوسف - شعيب - أيوب - ذو الكفل - موسى - هارون - داود - سليمان - إلياس - اليسع - يونس - زكريا - يحيى - عيسى - محمد - عليهم الصلاة والسلام جميعًا.

وقد نظم هؤلاء الأنبياء والرسل بعض العلماء فقال:

فى تلك حجتنا[1] منهم ثمانيـــــة ... من بعد عشرة ويبقى سبعة وهـــــم

إدريـس هـود شعيب صالح وكـذا ... ذو الكفـل آدم بالمخـتار قد ختمـوا

والأنبياء والرسل الخمسة والعشرون يجب الإيمان بهم تفصيلا أما من عداهم فيجب الإيمان بهم إجمالا، يؤيد ذلك قول الله تعالى:

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾[البقرة:٢٨٥].

ح) أولو العزم من الرسل

فإن قيل: من هم الرسل الموصوفون بأولى العزم؟

أقول: هؤلاء الرسل هم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد - عليهم الصلاة والسلام - ، وهم المشار إليهم بقول الله تعالى:

﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٣٥].

ولعل السبب فى وصفهم بأولى العزم؛ لأن عزائمهم كانت قوية، وابتلاءهم كان شديداً، وجهادهم كان شاقا.

حقا لقد جاهد هؤلاء الأنبياء جهاداً مريراً، وصبروا وصابروا فى سبيل تبليغ الرسالة التى كلفهم الله بها وسيتجلى لنا كفاحهم، وجهادهم، أثناء الحديث عنهم مفصلا بإذن الله تعالى.

هذا ونبينا «محمد» ﷺ أكثر الأنبياء على الإطلاق جهاداً، وصبراً، وتضحية - صلاة الله وسلامه عليهم أجمعين.

---

(١) نص الآيات : ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاً هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاً فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنعام:٨٣-٨٦].

ط) عصمة الأنبياء

اقتضت حكمة الله تعالى أن جعل أنبياءه أكمل البشر خَلْقا وخُلُقا، وأفضلهم علما، وأصدقهم قولا، وأشدّهم فطنة، وأشرفهم نسبًا، اقرأ قول الله تعالى فى الثناء على نبينا «محمد» ﷺ : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم:٤].

وقوله فى الثناء على بعض الأنبياء:

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [آل عمران: ٣٣-٣٤].

والأنبياء جميعاً أحاطهم الله برعايته، وشملهم بعنايته يشير إلى ذلك قول الله تعالى فى شأن نبينا «محمد» ﷺ: ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور:٤٨].

وقوله تعالى فى شأن «موسى» - عليه السلام:

﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾ [طه:٣٩].

فالله - سبحانه وتعالى - عصمهم من الوقوع فى الخطأ فى تبليغ رسالاتهم وحفظهم من الوقوع فى كل ما يخالف أوامر الله تعالى، فهم الهداة الذين أمرنا الله بالاقتداء بهم، فقال تعالى فى شأن نبينا «محمد» ﷺ:

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ﴾ [الأحزاب:٢١].

وقال تعالى فى شأن بعض الأنبياء:

﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام:٩٠].

والأنبياء جميعاً كانوا فى نهاية الطاعة لأوامر الله تعالى، يشير إلى ذلك قوله تعالى:

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾ [الأنبياء:٧٣].

وإذا تتبعنا آيات القرآن نجدها تسبغ على الأنبياء جميعا أكمل الصفات، وأسمى النعوت، فصلى الله عليهم أجمعين.

ى) خصائص النبوة

النبوة منزلة رفيعة، ودرجة من أسمى درجات القرب من الله تعالى، وفضل إلهىّ يؤتيها الله من يشاء من عباده، يشير إلى ذلك قول الله تعالى:

﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [الحج:٧٥].

والدعوة التى يقوم بها الأنبياء ليست صادرة عن ذكائهم، أو فطنتهم، أو شعورهم المرهف الحسّاس. إنما المصدر الحقيقى لما يقومون به من وسائل الإصلاح والدعوة إلى العدل والإحسان...إلخ هو الوحى الإلهى والرسالة التى يقومون بتبليغها عن الله تعالى، لهذا لا ينبغى أن نقيس الأنبياء بالحكماء، أو الزعماء، أو المصلحين، أو العباقرة...إلخ، فهؤلاء جميعاً إنما يتلقون كل شىء عن العقل المحض والعقل معرض للخطأ، والتقصير بلا شك. أمّا الأنبياء فهم معصومون من الخطأ؛ لأنهم يتلقون تعاليم الرسالة عن وحى السماء، يدل على ذلك قول الله تعالى:

﴿ يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾ [النحل:٢].

ك) وظيفة النبوة

الأنبياء جميعاً عليهم الصلاة والسلام مكلفون بتبليغ تعاليم الرسالة التى يوحى الله بها إليهم، والتعاليم كثيرة ومتعددة، ولعل كل رسالة انفردت بمعالجة الأخطاء التى كانت شائعة بين القوم الذين بعث فيهم صاحب الرسالة، ومما لا جدال فيه أن جميع الديانات السماوية اتفقت على الكثير من القضايا الرئيسية العامة، وحسبى أن أشير هنا إلى بعضها مثل:

أ) الدعوة إلى وحدانية الله تعالى، بمعنى أنه لا ينبغى أن يكون هناك شريك مع الله تعالى: إذ الشركة تقتضى عدم القدرة، والله - سبحانه وتعالى - من صفاته أنه قادر على كل شىء، ولا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء.

كما أن الشركة تقتضى الخلاف فى الرأى، وفساد الكون والعالم كله يشاهد مخلوقات الله تعالى على ما هى عليه منذ آلاف السنين، دون أن يطرأ عليها أىّ فساد، أو اضطراب.

ب) الإيمان باليوم الآخر، وما فيه من عقاب وجزاء...إلخ.

ج) إرشاد الناس إلى الفضائل التى فيها سعادتهم فى الدارين، ونهيهم عن الرذائل التى فيها شقاؤهم.

ومن أراد تفاصيل ذلك فعليه بالرجوع إلى المصادر الموثوق بها، وأختم ذلك بقول الله تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ [الشورى:١٣].

ل) معجزات الانبياء

المعجزة: هى الأمر الخارق للعادة يجريه الله تعالى على يد نبىّ مرسل؛ ليقيم به الدليل على صدق نبوته، ويجب على كل مؤمن أن يعتقد بأن الله تعالى قد أيّد أنبياءه وأمدهم من عنايته الإلهية بالمؤيدات التى لم تعهدها العقول من قبل ليثبتوا بها للناس صدقهم فيما يدعون إليه، وأنهم مرسلون من عند الله تعالى.

والمعجزة لا تأتى عن طريق ممارسة العلوم، أو مزاولة أسباب يمكن تعاطيها كما هو الحال فى السحر وغيره، مما له أسباب وقواعد يمكن تعلمها، وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن تكون معجزة كل رسول موافقة لما هو شائع بين القوم المرسل إليهم؛ ليكون ذلك أبلغ فى تأييد الرسول، وأقوى فى التحدى والإلزام.

ومعجزات الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - متعددة ومتنوعة: فمنها ما هو معجزة كونية كانفجار الماء من الحجر حينما ضربه «موسى» - عليه السلام - بعصاه حين طلب منه قومه السقيا، يشير إلى ذلك قول الله تعالى:

﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [البقرة:٦٠].

ومنها: ما هو مخالف للقوانين الطبيعية، مثل النار التى أراد قوم «إبراهيم» - عليه السلام - إحراقه بها، فكانت عليه برداً وسلاماً بأمر الله تعالى، يؤيد ذلك قول الله تعالى:

﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) ﴾ [الأنبياء:٦٨-٦٩].

ومنها ما هو إخبار بالمغيبات، مثل إنباء «عيسى» - عليه السلام - قومه بما يأكلون وما يدخرون فى بيوتهم، يؤيد ذلك قول الله تعالى:

﴿ وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

[آل عمران:٤٩]

وظلت معجزات الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - على هذا النمط حتى جاء خاتم الأنبياء والمرسلين نبينا «محمد» ﷺ فأيده الله بالمعجزة العقلية الخالدة التى تتفق مع عموم رسالته وخلودها، ألا وهى «القرآن الكريم» المعجز بأسلوبه، وبلاغة ألفاظه، وبما يحتويه من إخبار عن المغيبات إلى غير ذلك من سائر أنواع الإعجاز، التى تحدث عنها العلماء، وأفردوا لها مصنفات خاصة، وصدق الله حيث قال فى مقام إعجاز القرآن:

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [البقرة:٢٣-٢٤].

م) الأنبياء قدوة للبشر

جميع الرسالات التى جاء بها كل نبىّ من الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - كانت لمصلحة البشرية؛ إذ فيها سعادتهم فى الدنيا والآخرة ولولا إرسال الرسل لعمّ الفساد الأرض.

يشير إلى ذلك قول الله تعالى: ﴿ رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء:١٦٥].

لما تقدم وجب على كل أمة أرسل الله فيهم رسولا الاقتداء برسولهم عملا بقول الله تعالى:

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب:٢١].

أنتقل بعد ذلك إلى الحديث عن مباحث هذا الكتاب فأقول وبالله التوفيق:

الفصل الأول : دعوة نبيّ الله «نوح» - عليه السلام -

وفيه مبحثان:

المبحث الأول : الشرك الذى واجهه «نوح» -عليه السلام- وإبطاله له:

سيكون حديثى بإذن الله تعالى فى هذا المبحث عن عدد من القضايا الهامة التى لها صلة وثيقة بموضوع البحث مثل:

أ) نسب نبيّ الله «نوح» - عليه السلام.

ب) نشأة «نوح».

ج) اصطفاء الله لـ «نوح».

د) الله - سبحانه وتعالى - يكرّم «نوحًا» بالهداية والرشاد.

هـ) نوع الشرك الذى واجهه «نوح» - عليه السلام.

و) «نوح» يدعو قومه إلى ترك عبادة الأصنام ويأمرهم بعبادة الرحمن.

المبحث الثانى : عرض نبيّ الله «نوح» للتوحيد، ودعوته إليه:

وسأتناول فى هذا المبحث القضايا الآتية لصلتها الوثيقة بموضوع البحث:

أ) «نوح» يدعو قومه إلى عبادة الله وحده.

ب) «نوح» يدعو قومه للتفكر فى مخلوقات الله تعالى.

ج) الله - سبحانه وتعالى - يأمر «نوحًا» بإعداد سفينة النجاة.

د) نجاة «نوح» ، وهلاك الكافرين.

وهذا تفصيل الكلام على هذه القضايا حسب ترتيبها:

المبحث الأول : الشرك الذى واجهه «نوح» -عليه السلام- وإبطاله له

أ) نسب نبىّ الله «نوح» - عليه السلام-(١)

هو: «نوح» بن لَمْك بفتح اللام وسكون الميم بعدها كاف ابن مَتُّوشَلَخ بفتح الميم وتشديد المثناة المضمومة بعدها واو ساكنة وفتح الشين المعجمة واللام والخاء المعجمة، ابن خَنُوخ بفتح الخاء المعجمة، وضم النون الخفيفة وبعدها واو ساكنة ثم خاء معجمة، وشاع أخَنُوخ بهمزة أوله، وهو «إدريس» - عليه السلام - ابن يَرْد بمثناة من تحت مفتوحة، ثم راء ساكنة مهملة، ابن مهلاييل بن قينان بن أنوش بالنون والشين المعجمة، ابن شيث بن «آدم» - عليه السلام(٢).

وروى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أنه كان بين «آدم» و«نوح» عليهما السلام عشرة قرون(٣).

وعن ابن عباس أيضًا مرفوعًا: بعث الله تعالى «نوحًا» لأربعين سنة فلبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم، وعاش بعد الطوفان ستين سنة حتى كثر الناس وفشوا(٤).

وفى التهذيب للنووى: أن «نوحًا» - عليه السلام - كان أطول الأنبياء عمراً، وقيل: إنه أطول الناس مطلقًا عمراً فقد عاش ألفًا وأربعمائة وثمانين سنة ولم يسمع عن أحد أنه عاش كذلك...اهـ (٥).

ب) نشأة «نوح» عليه السلام

نشأ نبىّ الله «نوح» - عليه السلام - بأرض بابل(٦)، بين قوم يقال لهم: بنو راسب كما ذكره ابن جبير، وغيره(٧)، وكان قوم «نوح» قد عكفوا على عبادة الأصنام من دون الله تعالى، ولما انتشر الفساد، وعمّ البلاء بعبادة الأصنام، بعث الله «نوحًا» عليه السلام، يدعو إلى وحدة الألوهية، وينهى عن عبادة ما سوى الرحمن الرحيم.

---

(١) نوح : اسم أعجمىّ، وقال «الجواليقى» : معرّب، وقال «الكرمانى» : معناه بالسريانية الساكن، وصرف لعدم زيادته على الثلاثة مع سكون وسطه : انظر : تفسير الآلوسى جـ ٢٩ ص٦٧ .

(٢) انظر : تفسير الألوسى جـ ٢٩ ص ٦٧ .

(٣، ٤، ٥) انظر : تفسير الآلوسى جـ ٢٩ ص ٦٨ .

(٦) بابل: بكسر الباء: اسم ناحية منها «الكوفة» وتقع على الجانب الأيسر من نهر الفرات، ويقال: إن أول من سكنها «نوح» -عليه السلام- . انظر : معجم البلدان لياقوت جـ١ ص ٣٠٩، والبداية والنهاية لابن كثير جـ١ ص ١٠٦ .

(٧) البداية والنهاية لابن كثير جـ١ ص ١٠١ .

ومما هو جدير بالذكر أن نبىّ الله «نوح» - عليه السلام- يعتبر أول رسول بعث إلى أهل الأرض بعد كل من «آدم» و«إدريس» -عليهما السلام- كما ثبت فى الصحيحين:

فعن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ فى حديث الشفاعة قال:

«فيأتون آدم فيقولون يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، وأسكنك الجنة ألا تشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه وما بلغنا، فيقول: ربى غضب غضبًا شديداً لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله، ونهانى عن الشجرة فعصيت، نفسى نفسى، اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى «نوح» فيأتون نوحًا فيقولون يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض وسماك الله عبداً شكوراً » الحديث[١].

ج) اصطفاء الله تعالى لـ «نوح» - عليه السلام

اقتضت إرادة الله تعالى أن فضل بعض المخلوقات على بعض: ففضل بعض الأيام على بعض، مثل يوم الجمعة، ويوم عرفة، وعشر ذى الحجة:

فمما جاء فى فضل يوم الجمعة الحديث التالى:

فعن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها » اهـ[٢].

ومما جاء فى فضل يوم عرفة الحديث التالى:

فعن أبى قتادة - رضى الله عنه - قال: سئل رسول الله ﷺ عن صوم يوم عرفة قال: «يكفر السنة الماضية والباقية» اهـ[٣].

ومما جاء فى فضل العشر الأوائل من ذى الحجة الحديث التالى:

فعن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: «ما من أيام العمل الصالح فيها أحبّ إلى الله من هذه الأيّام».

يعنى: أيام العشر، قالوا: يا رسول الله ولا الجهاد فى سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد فى سبيل الله إلا رجل خرج بنفسه، وماله فلم يرجع من ذلك بشىء» اهـ[٤].

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ١ ص ١٠٦ .
(٢) رواه مسلم انظر: رياض الصالحين ص ٤٥٨ .
(٣) رواه مسلم انظر: رياض الصالحين ص ٤٨٧ .
(٤) رواه البخارى انظر: رياض الصالحين ص ٤٨٧ .

كما فضل بعض الشهور على بعض مثل شهر رمضان، ومما جاء فى فضل هذا الشهر الحديث التالى: فعن سلمان الفارسى - رضى الله عنه - قال: خطبنا رسول الله ﷺ فى آخر يوم من شعبان فقال:

«يا أيها الناس قد أظلكم شهر عظيم مبارك، شهر فيه ليلة خير من ألف شهر، شهر جعل الله صيامه فريضة، وقيام ليله تطوعًا، من تقرب فيه بخصلة من الخير كان كمن أدّى فريضة فيما سواه، فمن أدّى فريضة فيه كان كمن أدّى سبعين فريضة فيما سواه، وهو شهر الصبر، والصبر ثوابه الجنة، وشهر المواساة، وشهر يزاد فى رزق المؤمن فيه، من فطّر فيه صائمًا كان مغفرة لذنوبه، وعتق رقبته من النار، وكان له مثل أجره من غير أن ينقص من أجره شىء»، قالوا: يا رسول الله: ليس كلنا يجد ما يفطر الصائم، فقال رسول الله ﷺ: «يعطى الله هذا الثواب من فطر صائمًا على تمرة، أو على شربة ماء، أو مذقة لبن، وهو شهر أوله رحمة، وأوسطه مغفرة، وآخره عتق من النار، من خفف عن مملوكه فيه غفر الله له، وأعتقه من النار، واستكثروا فيه من أربع خصال: خصلتين ترضون بهما ربكم، وخصلتين لا غناء بكم عنهما: فأما الخصلتان اللتان ترضون بهما ربكم: فشهادة أن لا إله إلا الله، وتستغفرونه. وأما الخصلتان اللتان لا غناء بكم عنهما: فتسألون الله الجنة، وتعوذون به من النار، ومن سقا صائمًا سقاه الله من حوضى شربة لا يظمأ حتى يدخل الجنة» اهـ[1].

كما اقتضت إرادته - عز وجل - تفضيل بعض الرسل على بعض، يؤيد ذلك قول الله تعالى:

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة:٢٥٣].

ونبى الله «نوح» -عليه السلام- من الذين اصطفاهم الله تعالى وفضلهم على كثير من خلقه تفضيلا، يشير إلى ذلك قوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [آل عمران: ٣٣-٣٤].

(١) رواه ابن خزيمة، انظر: الترغيب والترهيب جـ٢ ص ١٤٢.

د) الله سبحانه وتعالى يكرم «نوحا» بالهداية والرشاد

هداية الله لعباده منزلة عظيمة، ودرجة رفيعة، إذ لولا هداية الله لجميع مخلوقاته لظلوا فى ضلال مبين؛ يشير إلى ذلك قول الله تعالى:

﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ ﴾

[الأعلى:١-٣]

وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ ... ﴾ [النحل:٣٦].

وبما أن الهداية منزلة رفيعة فقد امتن الله بها على كثير من أنبيائه ورسله، ومن يقرأ «القرآن» يجده حافلا بالآيات التى تدل على ذلك:

فتارة نجده يمتن على «آدم» - عليه السلام - يشير إلى ذلك قوله تعالى:

﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ [طه:١٢٢].

وتارة نجده يمتن على «إبراهيم» -عليه السلام- يرشد إلى ذلك قوله تعالى:

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ ﴾ [النحل:١٢٠-١٢١].

كما نجد الله سبحانه وتعالى يمتن على نبينا «محمد» ﷺ يشير إلى ذلك قوله تعالى:

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ [الضحى:٦-٧].

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام: ١٦١].

وإذا كان يوم القيامة فأصحاب الجنة يحمدون الله تعالى على هدايته لهم، يشير إلى ذلك قوله تعالى:

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ [الأعراف:٤٣].

والمؤمنون أصحاب العقول السليمة يطلبون من الله تعالى أن يديم عليهم هدايته، يدل على ذلك قول الله تعالى:

﴿ رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾

[آل عمران:٨]

ونبىّ الله «نوح» - عليه السلام - كان من نعم الله عليه التى لا تحصى أن تكرم عليه بالهداية والرشاد، يشير إلى ذلك قوله تعالى:

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ﴾ [الأنعام:٨٤].

هـ) نوع الشرك الذى واجهه «نوح» عليه السلام

الذى يفهم من تفسير قول الله تعالى:

﴿ وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلالاً (٢٤) ﴾ [نوح:٢٣-٢٤].

أن قوم نبىّ الله «نوح» -عليه السلام- كانوا قد عكفوا على عبادة الأصنام من دون الله تعالى، والذى يبدو من ظاهر الآية القرآنية أن هذه الأصنام كانت كثيرة ومتعددة، إلا أن أشهر هذه الأصنام خمسة وهى: ود- وسواع- ويغوث- ويعوق- ونسر.

وقد ذكر ابن جرير الطبرى فى تفسيره عدّة روايات: كلها تفيد أن هذه الأصنام الخمسة كانت لأشخاص صالحين من بنى آدم، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صوّرناهم كان أشوف لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم، فصوّروهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دبّ إليهم إبليس فقال: إنما كانوا يعبدونهم، وبهم يسقون المطر فعبدوهم... اهـ[1].

ثم يقول ابن جرير فى بعض رواياته: حدثنا ابن عبد الأعلى، قال حدثنا ابن ثور، عن معمر، عن قتادة، قال: فى تفسير قوله تعالى: ﴿ لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾.

(١) انظر: تفسير الطبرى جـ ٢٩ ص ٩٨ فما بعدها.

قال: كانت آلهة يعبدها قوم «نوح»، ثم عبدتها العرب بعد ذلك، فكان ودّ لكلاب بدومة الجندل، وكان سواع لهذيل وكان يغوث لبنى غطيف بالجرف، وكان يعوق لهمْدان وكان نسر لذى الكُلاع من حمير... اهـ[1].

و) نوح يدعو قومه إلى ترك عبادة الأصنام، ويأمرهم بعبادة الرحمن

نشأ نبىّ الله «نوح» - عليه السلام - بين قوم يعبدون أصنامًا لا تنفع ولا تضر ولاتغنى من الأمر شيئًا؛ من هنا كانت مهمة «نوح» الأساسية العمل على نبذ عبادة الأصنام، والاتجاه إلى عبادة الرحمن، ولكن كان قوم «نوح» كلما دعاهم نبيهم إلى توحيد الألوهية جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم، وأصروا على كفرهم، واستكبروا استكبارا.

ومن يقرأ «القرآن» يجد فى سوره المتعددة ألوانا من المعارضة الشديدة، ومن الإصرار على عدم الاستجابة لدعوة التوحيد، وهذا نموذج للحوار الذى كان يدور بين «نوح» وقومه كما صوره القرآن الكريم:

اقرأ قول الله تعالى:

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الأعراف:٥٩-٦٤].

وقوله تعالى:

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [يونس:٧١-٧٣].

---

(١) انظر: تفسير الطبرى جـ ٢٩ ص ٩٩.

واقرأ قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [هود:٢٥-٢٧].

واقرأ قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [المؤمنون:٢٣-٢٦].

واقرأ قوله تعالى:

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [الشعراء:١٠٥-١٠٩].

وهكذا نجد «القرآن» يصور الحوار الذى دار بين «نوح» وقومه تصويراً واقعيًا بليغًا، وصدق الله حيث قال: ﴿ سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴾ [الصافات:٧٩].

المبحث الثانى: عرض نبىّ الله «نوح» للتوحيد، ودعوته إليه

أ) نوح يدعو قومه إلى عبادة الله وحده

الدعوة إلى وحدة الألوهية كانت أهمّ أهداف نبىّ الله «نوح» - عليه السلام -، وقد كلفه ذلك جهداً عظيمًا، وزمنًا طويلا، حيث مكث نبيا فى قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا.

وهذه الفترة الزمنية تعتبر أطول مدّة عرفها التاريخ بالنسبة إلى دعوة الأنبياء على الإطلاق، ولكن للأسف مع طول هذه المدة لم يؤمن بـ «نوح» سوى نفر قليل.

قال الطبرى: حدثنى موسى بن عبد الرحمن المسروقي، قال: حدثنا زيد بن الحباب، قال: حدثنى حسين بن واقد الخُراسانى، قال: حدثنى أبو نهيك قال: سمعت ابن عباس يقول: كان فى سفينة نوح ثمانون رجلا أحدهم «جُرهم» ثم قال: والصواب من القول في ذلك أن يقال كما قال الله: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ يصفهم بأنهم كانوا قليلا، ولم يحدد عددهم بمقدار، ولا خبر عن رسول الله ﷺ صحيح، فلا ينبغى أن يتجاوز فى ذلك حدّ الله، إذ لم يكن لمبلغ عدد ذلك حدّ من كتاب الله، أو أثر عن رسول الله ﷺ... اهـ[1].

وأنا أقول كما قال الطبرى - والله أعلم -.

وقد اشتملت دعوة نبىّ الله «نوح» - عليه السلام - على أساليب متعددة من أساليب الدعوة إلى الله، وكان «نوح» يعرض قضية وحدة الألوهية على قومه عرضًا بليغًا مشتملا على الترغيب والترهيب. وقد سجل القرآن ذلك فى سوره المتعددة بأساليب مختلفة، اقرأ فى هذا قول الله تعالى:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩)﴾ [الأعراف: ٥٩]

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٥) أَن لاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦)﴾ [هود: ٢٥ - ٢٦].

وقوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧)﴾ [الشعراء: ١٠٦ - ١٠٧]

(١) انظر: تفسير الطبرى جـ ١٢ ص ٤٣.

وقوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾

[نوح: ١-٤]

ب) نبىّ الله «نوح» يدعو قومه للتفكر فى مخلوقات الله تعالى

من وسائل الدعوة إلى وحدة الألوهية أن الداعية يدعو قومه إلى التفكر فى مخلوقات الله تعالى وهى كثيرة ومتعددة. والهدف من ذلك أن صاحب العقل السليم، والتفكير الناضج -بلا شك- سيهديه تفكيره إلى أن هذه المخلوقات لم توجد من تلقاء نفسها، وإنما أوجدها موجد، هذا الموجد هو الله تعالى، وهو الذى يستحق أن يعبد وحده دون سواه؛ لأن جميع الكائنات بما فيها الأصنام مخلوقة ولا تملك من الأمر شيئًا. وبما أن التفكر فى مخلوقات الله أمر عظيم؛ لأنه يوصّل إلى الإقرار بوحدانية الله، لما كان الأمر بهذه المنزلة العظيمة نجد «القرآن» قد سلك هذا المنهج فى كثير من آياته، اقرأ فى هذا قول الله تعالى:

﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١﴾ [الذاريات: ٢٠-٢١]

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠﴾ [الغاشية:١٧-٢٠].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۝١٩٠﴾ [آل عمران:١٩٠].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝١٦٤﴾ [البقرة:١٦٤]

ونبىّ الله «نوح» -عليه السلام- سلك هذا المنهج أيضًا مع قومه ولفت أنظارهم إلى التفكر فى كثير من مخلوقات الله تعالى ليستدلوا بذلك على وحدانية الله العزيز الحكيم.

يشير إلى ذلك قوله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [نوح:١٥-٢٠]

جـ) الله سبحانه وتعالى يأمر «نوحا» بإعداد سفينة النجاة

بعد أن استعمل «نوح» مع قومه أكثر من أسلوب، وأكثر من وسيلة ليثنيهم عن عبادة الأصنام، أوحى الله إليه بأنه لن يؤمن به سوى النفر القليل الذى أعلن إيمانه كما قال تعالى:

﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [هود:٣٦].

عندئذ أيقن «نوح» -عليه السلام- بأن إيمان قومه أصبح ميئوسًا منه، فدعا عليهم وقال:

﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [نوح:٢٦-٢٧].

وبما أن دعاء الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - مستجاب استجاب الله دعاء «نوح» -عليه السلام- وأمره بإعداد سفينة النجاة لينقذه ومن آمن به من الهلاك الذى سوف يحل بهؤلاء الكفار المعاندين، وقد صور القرآن هذه المشاهد كلها تصويرا بليغًا فى أكثر من سورة من سوره، وهذا قبس مما قصه القرآن علينا ليكون عبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد:

قال تعالى:

﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [هود:٣٧-٣٩]

وقال تعالى:

﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [المؤمنون:٢٧].

د) نجاة نوح وهلاك الكافرين

استجاب «نوح» -عليه السلام- لتوجيه ربه وخالقه، وشرع فى عمل السفينة تنفيذاً لأوامر الله تعالى، وكان قومه كلما مروا عليه سخروا منه، ونوح صابر محتسب ويرد على سخرية قومه بقوله:

﴿ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [هود:٣٨-٣٩].

ولما أتم «نوح» صنع السفينة أمره الله تعالى بأن يحمل فيها كل من آمن به، وأهله إلا زوجه وولده، كما أمره بأن يحمل من كل زوجين اثنين من جميع مخلوقات الله تعالى.

ولما تمّ تنفيذ كل شىء، وجاء اليوم الموعود، فجّر الله الأرض عيونا، وهطلت السماء الماء المنهمر، فجرت السفينة فى هذه المياه الغزيرة، والأمواج المتلاطمة وعمّ الطوفان الأرض، ونجا «نوح» والمؤمنون، وغرق الكفار المعاندون، وقد قصّ القرآن ذلك فى أسلوب موجز بليغ فقال عز من قائل:

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الأعراف:٦٤].

وقال تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [يونس:٧٣].

وقال تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ

نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [هود:٤٠-٤٤].

وقال تعالى:

﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾

[الشعراء:١١٩-١٢٠]

وقال تعالى: ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [العنكبوت:١٥].

وقال تعالى: ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ ﴾

[القمر:١١-١٦]

وقد أمر الله تعالى «نوحا» -عليه السلام- عند استواء سفينة النجاة على الجودى- أن يهبط من السفينة بسلام من الله تعالى.

وختمت هذه الرحلة المباركة التى كانت معجزة لنبىّ الله «نوح» -عليه السلام- وموعظة لكل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

ختمت بقوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ(1) وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [هود:٤٤].

وبقوله تعالى: ﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ ﴾ [هود:٤٨].

---

(١) الجودى : اسم جبل بالموصل، انظر: معجم الألفاظ والأعلام القرآنية/ محمد إسماعيل إبراهيم.

الفصل الثانى : دعوة نبىّ الله «إبراهيم» -عليه السلام

وفيه مبحثان:

المبحث الأول : نوع الشرك الذى واجهه نبىّ الله «إبراهيم» وإبطاله له:

سيكون حديثى - بإذن الله تعالى - فى هذا المبحث عن عدد من القضايا الهامة التى لها صلة وثيقة بموضوع البحث مثل:

أ) نسب «إبراهيم» -عليه السلام.

ب) مكان مولد «إبراهيم» ونشأته.

ج) الآلهة التى كان يعبدها القوم الذين نشأ فيهم «إبراهيم».

د) الله - سبحانه وتعالى - يؤتى «إبراهيم» رشده.

هـ) الله - سبحانه وتعالى - يشرح صدر «إبراهيم» للإيمان.

و) إبراهيم يستجيب لأمر الله تعالى له بالإسلام.

ز) اصطفاء الله تعالى لإبراهيم -عليه السلام.

ح) نجاح «إبراهيم» فى اختبار الله له.

ط) المراحل التى اتبعها نبىّ الله «إبراهيم» من أجل إبطال عبادة الأصنام.

المبحث الثانى : عرض نبىّ الله «إبراهيم» للتوحيد، ودعوته إليه:

وسأتناول فى هذا المبحث القضايا الآتية لصلتها الوثيقة بموضوع البحث:

أ) الإله الذى يستحق العبادة.

ب) قضايا لها صلة وثيقة بقضية التوحيد.

وهذا تفصيل الكلام على هذه القضايا حسب ترتيبها:



المبحث الأول: نوع الشرك الذى واجهه نبىُّ الله «إبراهيم» وإبطاله له

أ) نسب إبراهيم - عليه السلام

هو: إبراهيم بن تارخ بن ناحور بن ساروغ بن راغو بن فالغ بن عابر بن شالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح -عليه السلام[١].

ب) مكان مولد إبراهيم ونشأته

روى ابن عساكر من غير وجه عن عكرمة أنه قال: لما كان عمر تارخ خمسا وسبعين سنة ولد له «إبراهيم» -عليه السلام-، وكان ذلك فى أرض الكلدانيين يعنون أرض بابل[٢]. وهى تقع بين نهرى دجلة، والفرات فى السهل إلى الجنوب[٣].

وكان ذلك فى القرن السابع عشر قبل المسيح -عليه السلام -، وكان مولد «إبراهيم» -عليه السلام- فى عهد الملك نمرود بن كنعان بن كوش ويثبت المؤرخون أن الزمن الذى عاش فيه نبىّ الله «إبراهيم» فى العراق كانت حضارة بابل هى المسيطرة على العراق[٤].

ج) الآلهة التى كان يعبدها القوم الذين نشأ فيهم إبراهيم

يحدثنا التاريخ أن أهل بابل كانوا يعبدون الأصنام من دون الله تعالى وكان لهم عدد كثير من هذه الآلهة، إذ كان لكل مدينة صنم يحميها حسب معتقداتهم الباطلة، وكان كبير هذه الأصنام صنم يقال له مردك[٥].

ومن يقرأ القرآن الكريم يجده يخبر فى أكثر من موضع بأن قوم «إبراهيم» كانوا يعبدون الأصنام من دون الله تعالى، وقد ورثوا ذلك عن آبائهم يشير إلى ذلك قول الله تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الأنعام:٧٤]

---

(١) انظر: البداية والنهاية لابن كثير جـ١ ص١٣٩ . ط بيروت.

(٢) بابل: بكسر الباء: اسم ناحية منها «الكوفة» وقيل: «الكلدانيون» هم الذين كانوا ينزلون «بابل» فى الزمن الأول، ويقال: إن أول من سكنها «نوح» عليه السلام، وهو أول من عمرها، وكان قد نزلها عقب الطوفان، فسار هو ومن خرج معه من السفينة إليها، فأقاموا بها، وتناسلوا فيها، وكثروا من بعد «نوح» واتصلت مساكنهم بدجلة والفرات» انظر: معجم البلدان جـ١ ص٣٠٩.

(٣) انظر: مع الأنبياء ص١٠٧ . (٤) المرجع السابق. (٥) انظر: مع الأنبياء ص٢٠٨ ط بيروت.

وقوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الأنبياء:٥١-٥٢].

وقوله تعالى:

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ [الشعراء:٦٩-٧١].

إلى غير ذلك من النصوص التى لا تدع مجالا للشك فى أن قوم «إبراهيم» كانوا يعبدون الأصنام من دون الله الواحد القهار.

د) الله سبحانه وتعالى يؤتى إبراهيم رشده

فى هذه البيئة التى سيطر عليها الشرك، وتعدد الآلهة، ونصبت فيها التماثيل لعبادتها من دون الله تعالى الواحد الأحد الذى ليس له شريك فى الملك، إذ لو كان هناك آلهة غير الله تعالى لفسد نظام الكون، مصداقًا لقوله تعالى :

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

[الأنبياء:٢٢]

شاءت إرادة الله تعالى أن يرسل إلى هؤلاء المشركين «إبراهيم» - عليه السلام- ؛ ليبلغهم رسالة الله تعالى، والتى فى مقدمتها الإيمان بالله وحده، ونبذ عبادة الأصنام، والإيمان باليوم الآخر، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات بالثواب العظيم وينذر الكافرين بالعذاب المقيم، فآتاه الله رشده أى هواه مبكراً قبل البلوغ(١)، وقيل: آتاه الله رشده: فى سابق علمه(٢)؛ لأن الله - سبحانه وتعالى - علم أزلا أن إبراهيم أهل للنبوة، وصدق الله حيث قال:

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [الأنبياء:٥١].

---

(١) روى هذا القول أبو صالح عن ابن عباس، انظر : زاد المسير فى علم التفسير جـ٥ ص ٣٥٦ .
(٢) روى هذا القول الضحاك عن ابن عباس، انظر : زاد المسير فى علم التفسير جـ٥ ص ٣٥٦ .

هـ) الله سبحانه وتعالى يشرح صدر «إبراهيم» للإيمان

من تمام نعم الله تعالى على أنبيائه أنه أعدهم إعدادا خاصًا، وهيأهم بأصل خلقهم إلى تحمل أعباء تبليغ الرسالة؛ لأنه يعلم أزلا أنهم سيواجهون الكثير من الآلام: النفسيّة، والجسمانية، فى سبيل تبليغ الرسالة، ونعم الله على أنبيائه ورسله كثيرة لا تحصى ولا تعد، من هذه النعم التى تفضل الله بها على نبيه «إبراهيم» -عليه السلام: أن شرح له صدره، وأراه ملكوت السماوات والأرض، تحقيقًا لقوله تعالى:

﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

[الأنعام:٧٥]

وقوله تعالى:

﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الصافات:٨٣-٨٤].

وشرح الصدر من أكبر نعم الله على عباده ؛ إذ لولا ذلك لما اهتدى الإنسان إلى الإيمان بالله - عز وجل - ، يرشد إلى ذلك:

قوله تعالى:

﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الزمر:٢٢].

وقوله تعالى:

﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾

[الأنعام:١٢٥]

ولذا كان من النعم التى امتن الله بها على نبينا «محمد» ﷺ شرح صدره، حيث قال له:

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ ﴾ [الشرح:١].

و) إبراهيم يستجيب لأمر الله تعالى له بالإسلام

المخلوقات كلها فى مقام الاختبار بالنسبة لأوامر الله تعالى: فمن شاء الله له الهداية، والسعادة، استجاب لأمر الله، والعكس صحيح: أى من أراد الله له الشقاء، والحرمان من الثواب الذى أعده لعباده المؤمنين، جعل صدره - بالنسبة لقبول الإيمان- ضيقًا حرجًا كأنما يصعّد فى السماء، فلا يستجيب لأوامر الله تعالى، من هذا يتبين أن الهداية، وعدمها، بإرادة الله تعالى، يوضح ذلك قول الله تعالى:

﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [البقرة:٢٧٢].

وقوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [ص:٧١-٧٤].

ونبىّ الله «إبراهيم» - عليه السلام - كان من المستجيبين لأمر الله له بالإسلام لأنه من المصطفين الأخيار، يرشد إلى ذلك قول الله تعالى:

﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾ [البقرة:١٣١].

ز) اصطفاء الله تعالى «لإبراهيم» - عليه السلام

سبق أن تحدثت بالتفصيل عن تفضيل الله تعالى بعض مخلوقاته على بعض، وذلك أثناء حديثى عن: اصطفاء الله تعالى لـ «نوح» -عليه السلام-، فلا داعى إلى إعادة الكلام فى هذا الموضوع ، ونبى الله «إبراهيم» - عليه السلام - من الذين اصطفاهم الله تعالى، وفضلهم على كثير من خلقه تفضيلا، يشير إلى ذلك قول الله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [آل عمران:٣٣-٣٤].

وقوله تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ ﴾ [ص:٤٥-٤٧].

ح) نجاح «إبراهيم» فى اختبار الله له

شاءت إرادة الله تعالى أن ينزل البلاء بعباده ليختبرهم هل يردون الأمر إلى الله تعالى، ويستسلمون لقضائه وقدره، وحينئذ لا يزيدهم ذلك الاختبار إلا إيمانًا بالله الذى بيده ملكوت كل شىء، والعكس صحيح، واختبار الله تعالى لعباده متنوع، ومتعدد:

فتارة يكون بشىء من خوف الأعداء، أو الجوع، ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، كما قال تعالى:

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧) ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧].

وكما قال تعالى:

﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٨٦) ﴾ [آل عمران:١٨٦].

وتارة يكون الاختبار بمطلق الخير والشر، كما قال تعالى:

﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥) ﴾ [الأنبياء:٣٥].

وتارة يكون بقتال الأعداء، كما قال تعالى:

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (٣١) ﴾

[محمد:٣١]

وتارة يكون الاختبار بأمر معنوى عبّر عنه القرآن بقوله تعالى:

﴿ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٥٤) ﴾

[آل عمران : ١٥٤]

ونبىّ الله «إبراهيم» اختبره الله بأنواع متعددة، وكان فى كل حالة يضرب المثل الأعلى فى النجاح فى هذه الاختبارات، لأنه من ذوى العزم - عليهم الصلاة والسلام.

اقرأ فى هذا المقام قول الله تعالى:

﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ [البقرة:١٢٤].

وقوله تعالى:

﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) ﴾ [الصافات:١٠١:١٠٩].

ط) المراحل التى اتبعها نبى الله «إبراهيم» من أجل إبطال عبادة الأصنام

لقد كانت المهمة الأساسية والرئيسية لنبى الله «إبراهيم» فى دعوته هى إقامة الحجة على أبيه وقومه، فى أن هذه الأصنام لا تستحق أن تعبد من دون الله تعالى؛ لأنها لا تنفع ولا تضر، بل ولا تغنى عن نفسها من الأمر شيئًا، وقد سلك نبى الله «إبراهيم» - فى إقامة الحجة وإبطال عبادة الأصنام- منهجًا عظيمًا تدرج فيه على أربع مراحل:

المرحلة الأولى: عيبه على أبيه وقومه عبادة الأصنام.

المرحلة الثانية: تبرؤه من قومه ومن عبادة الأصنام.

المرحلة الثالثة: إقامته الحجة على قومه فى أن الأصنام لا تستحق العبادة.

المرحلة الرابعة: تحطيم الأصنام ليثبت لقومه عدم صلاحيتها للعبادة.

وهذا تفصيل الكلام على كل مرحلة على حدة:

المرحلة الأولى: عيب «إبراهيم» على أبيه وقومه عبادة الأصنام

من أساليب الدعوة الناجحة أن يقيم الداعية الحجج الواضحة على بطلان دعوى الخصم، ولقد سلك نبى الله «إبراهيم» فى سبيل إقامة الحجة على ترك عبادة الأصنام الكثير من الأساليب القوية البليغة:

١ - فتارة يوجه التهمة إلى أبيه وقومه ويثبت لهم أنهم فى ضلال مبين بسبب عبادة الأصنام. يوضح ذلك قول الله تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الأنعام:٧٤]

٢- وتارة يلوم أباه من أجل عبادته للأصنام التى لا تسمع، ولا تبصر، ولا تملك من الأمر شيئًا، يشير إلى ذلك قوله تعالى:

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ ﴾ [مريم:٤١-٤٥]

٣- وتارة يتهكم على أبيه وقومه بسبب عبادتهم الأصنام يدل على ذلك قوله تعالى:

﴿ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الأنبياء:٥٢].

٤- عيبه على قومه من أجل عبادة الأصنام التى لا ترزق أحداً: يوضح ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [العنكبوت:١٦-١٧].

٥- توجيه التهمة إلى قومه بسبب أنهم يعبدون أصنامًا نحتوها بأنفسهم، وتركوا عبادة الله الذى ليس كمثله شيء يرشد إلى ذلك قوله تعالى:

﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾[الصافات:٩٥-٩٦].

المرحلة الثانية: تبرؤ «إبراهيم» من قومه ومن عبادة الأصنام

بعد أن عاب نبى الله «إبراهيم» عليه السلام على قومه عبادة الأصنام، وبين لهم بالدليل والبرهان الساطع أنها لا تستحق العبادة، ومع ذلك أصروا على كفرهم ولم يؤمنوا.

سلك نبى الله المرحلة الثانية: وهى تبرؤه من قومه ومن عبادة الأصنام، وهذا الأسلوب فى الدعوة من الأساليب الفعالة فى إقامة الحجة على الخصم، ومن الأدلة القاطعة على أن نبى الله «إبراهيم» تبرأ من قومه ومن عبادة الأصنام قوله تعالى:

﴿ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنعام:٧٨-٧٩].

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الزخرف:٢٦-٢٧].

وقوله تعالى:

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا ... ﴾ [الممتحنة:٤].

وأسلوب التبرؤ من عبادة غير الله تعالى جاء فى القرآن الكريم فى غير موضع:

فنبىّ الله «هود» -عليه السلام- يعلن لقومه براءته من عبادة غير الله تعالى، يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [هود:٥٣-٥٤].

ونبينا «محمد» ﷺ يعلن براءته من عبادة غير الله تعالى، يوضح ذلك قوله تعالى:

﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُل لاَّ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الأنعام:١٩].

وإذا كان يوم القيامة يتبرأ المتبوعون من التابعين، استمع إلى قوله تعالى:

﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ ﴾

[البقرة:١٦٦]

وحينئذ يندم التابعون على فرط منهم ويقولون كما حكاه عنهم القرآن:

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾ ﴾ [البقرة:١٦٧].

المرحلة الثالثة: إقامة «إبراهيم» الحجة على قومه فى أن الأصنام لا تستحق العبادة

من المهام الأساسية لكل نبىّ إقامته الحجة والبرهان على صدق نبوته، وصحة دعوته؛ ولهذا كانت معجزات الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام.

ونبىّ الله «إبراهيم» -عليه السلام- أقام الحجة تلو الحجة على صدق نبوته، وبين لقومه بالأدلة القاطعة، والبراهين الواضحة أن هذه الأصنام لا تصلح للعبادة؛ لأن الذى يستحق العبادة هو الله الذى ليس كمثله شىء، والذى لا تأخذه سنة ولا نوم، والذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد إلى آخر الصفات التى تجب لله تعالى، والتى أثبتها له القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

ولقد كان نبىّ الله «إبراهيم» قوىّ الحجة، واضح البرهان، تحقيقًا لقوله تعالى:

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ﴾ [الأنعام:٨٣].

والقرآن الكريم جاء حافلا بالآيات القرآنية التى تثبت بجلاء ووضوح مدى الجهد الذى بذله نبى الله «إبراهيم» من أجل إقامة الحجة على قومه؛ كى يتركوا عبادة الأصنام، ويتوجهوا إلى عبادة الله الواحد الغفار.

فمن ذلك قوله تعالى:

﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الأنبياء:٦٣-٦٧].

وقوله تعالى:

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الشعراء:٦٩-٨٢].

وقوله تعالى:

﴿ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [الصافات:٩١-٩٢]

ومن الأدلة الواضحة أيضًا على إقامة «إبراهيم» - عليه السلام - الحجة على قومه محاجته للملك الطاغية نمروذ، وقد صور القرآن هذه المحاجة بأبلغ عبارة، وأرق أسلوب، استمع إلى قول الله تعالى فى هذه المحاجة:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾ [البقرة:٢٥٨].

المرحلة الرابعة: تحطيم الأصنام ليثبت «إبراهيم» لقومه عدم صلاحيتها للعبادة

مما سبق تبين أن نبىّ الله «إبراهيم» -عليه السلام- استعمل مع قومه أكثر من وسيلة من وسائل الإصلاح، وتدرّج معهم بالحكمة والموعظة الحسنة، وأقام لهم البرهان تلو البرهان؛ كى يتبصروا ويتركوا عبادة الأصنام إلى عبادة الله الواحد الرحمن ولكن كل ذلك ذهب أدراج الرياح، وما زادهم إلا كفراً وعناداً، وتمسكًا بعبادة هذه الأصنام التى لا تنفع ولا تضر، بل ولا تغنى عن نفسها شيئًا.

بعد ذلك استعمل نبى الله «إبراهيم» وسيلة لا تدع مجالاً للشك فى أن هذه الأصنام لا تصلح للعبادة حيث لم تستطع الدفاع عن نفسها فضلاً عن جلب النفع، أو دفع الضر عن

غيرها، فعمد إلى تحطيم هذه الأصنام، ولم يدع منها شيئًا سوى كبيرهم؛ كي يرجعوا إلى سؤاله عن الذى حطم آلهتهم، وعندما يظهر لهم عجز الصنم الكبير ولم يستطع الردّ على سؤالهم، يثوبون إلى رشدهم ويؤمنون بالله رب العالمين. ولكن للأسف مع ظهور الحقيقة كوضح النهار، وعجز الصنم عن الكلام لأنه لم يسبق له الكلام.

مع كل هذا سيطر الجهل على عقولهم، وأصروا على كفرهم وعنادهم وقد صور القرآن الكريم هذا المشهد أبلغ تصوير، فقال عز من قائل:

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الأنبياء:٥١-٦٧].

وقال تعالى:

﴿ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الصافات:٩١-٩٦].

المبحث الثانى : عرض نبى الله «إبراهيم» للتوحيد، ودعوته إليه

سبق أن بينت فى المبحث الأول أن نبىّ الله «إبراهيم» -عليه السلام- نشأ بين قوم يعبدون الأصنام من دون الله تعالى، وقد ورثوا ذلك عن آبائهم؛ لهذا كانت مهمة نبىّ الله «إبراهيم» شاقة وصعبة، كما هى مهمة جميع الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام.

كما بينت أيضاً أن نبى الله «إبراهيم» استعمل الكثير من طرق الدعوة والإرشاد؛ كى يثنى قومه عن عبادة الأصنام ولكن دون جدوى، فقد ذهب كل ذلك دون جدوى ولم يؤمن به سوى نفر قليل فى مقدمتهم زوجه سارّة، وابن أخيه «لوط» -عليه السلام.

وفى هذا المبحث سأتطرق بإذن الله تعالى لبيان،

عرض نبى الله «إبراهيم» للتوحيد، ودعوته له

وبعد قراءة مستفيضة لشتى المصادر التى تناولت هذا الموضوع الهام، وجدت المقام يتطلب الحديث عما يلى:

أ) الإثبات بالدليل القاطع أن الإله الذى يستحق العبادة هو الذى يجب أن تتوفر فيه صفات أزلية قديمة لا يشاركه فيها غيره؛ لأنه ليس كمثله شىء.

ب) عرض قضايا هامة لها صلة وثيقة بقضية التوحيد، وهذا تفصيل الكلام عن هاتين القضيتين:

أ) الإله الذى يستحق العبادة

مما هو ثابت بالكتاب والسنة والإجماع، وما جاءت به جميع الديانات منذ «آدم» -عليه السلام-، أن الإله الذى يستحق العبادة هو الذى يجب أن تتوفر فيه صفات أزلية قديمة لا يشاركه فيها غيره، ومما لا شك فيه أن الصفات الواجبة لله تعالى كثيرة ومتعددة، وليس المقصود هنا التصدى لكل صفة على حدة وشرحها؛ لأن ذلك ليس من أهداف البحث، علماً بأن هناك الكثير من المصنفات التى تولت بيان ذلك.

ولكن المقصود هنا هو الإشارة إلى الصفات التى عرض لها نبىّ الله «إبراهيم» أثناء عرضه للتوحيد ودعوته له، وهذه الصفات تكفل ببيانها القرآن فى أكثر من موضع، وفى سوره المتعددة، وها أنذا سأعرض لبيان هذه الصفات، مقتفيًا فى ذلك أثر القرآن الكريم.

ومما هو ثابت أن نبىّ الله «إبراهيم» -عليه السلام- أثناء مناقشته لقومه، ودعوته لهم لعبادة الله ونبذ عبادة الأصنام كان يقيم عليهم الحجج المتتابعة على صدق دعوته، ويبين لهم أن الإله الذى يستحق العبادة هو الذى ليس كمثله شىء، وأخذ فى كل موقف من المواقف التى وقفها معهم يذكر صفة أو أكثر من صفات الله تعالى:

١- فتارة نجد نبىّ الله «إبراهيم» -عليه السلام- يبين لقومه أن الإله الذى يستحق العبادة دون سواه هو الذى خلق السموات والأرض وما فيهن على غير مثال سبق يرشد إلى ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام:٧٨-٧٩].

٢ - وتارة يقول لقومه: الإله الذى يستحق العبادة هو الذى أحاط علمه بكل شىء، وهذه الأصنام لا حياة فيها، ولذا فهى لا تدرك أىّ شىء، يوضح ذلك قوله تعالى:

﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأنعام:٨٠].

٣- وتارة يبرهن لقومه على أن الإله الذى يجب أن يعبد هو الذى بيده الحياة والموت، والأصنام التى تعبدونها أنتم الذين أوجدتموها فكيف تعبدونها؟ يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨].

٤- وتارة أثناء عرض «إبراهيم» -عليه السلام- لقضية التوحيد ودعوته له، يبرهن على ذلك بأن الإله الذى يجب أن يعبد دون سواه هو الذى فى قبضته كل شىء يسخره كيف يشاء بما فى ذلك الأفلاك، ومنها الشمس التى تقرون بمنفعتها، يؤيد ذلك قوله تعالى على لسان إبراهيم أثناء محاجته لعدو الله نمروذ:

﴿... قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ...﴾ [البقرة:٢٥٨].

٥- وتارة أثناء دعوة «إبراهيم» - عليه السلام - لعبادة الله وحده يدلل على صدق قوله بأن الإله الحقيقى هو الذى يسمع ويبصر، والأصنام التى تعبدونها أحجار صماء لا تدرك القليل ولا الكثير، يوضح ذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾﴾ [مريم:٤٢].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلايَضُرُّكُمْ﴾ [الأنبياء:٦٦].

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾﴾ [الشعراء:٧١-٧٣].

ب) قضايا هامة لها صلة وثيقة بقضية التوحيد

أثناء بحثى لقضية عرض نبى الله «إبراهيم» - عليه السلام - للتوحيد، ودعوته له، وجدت بعض القضايا المتصلة بموضوع البحث، فرأيت تتميما للفائدة عرضها عرضًا موجزاً:

أولا : كان من دعاء نبى الله «إبراهيم» -عليه السلام- طلب التثبيت على الإسلام هو وذريته، يوضح ذلك قوله تعالى على لسان «إبراهيم» -عليه السلام:

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ...﴾ [البقرة:١٢٨].

ثانياً: كان «إبراهيم» -عليه السلام- يطلب من الله تعالى أن يديم بعث الرسل فى ذريته لهداية البشرية يرشد إلى ذلك قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة:١٢٩].

ثالثاً: كان «إبراهيم» -عليه السلام- يوصى بنيه بالتمسك بالدين السماوى الحنيف، اقرأ فى ذلك قول الله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة:١٣٢].

رابعًا: وجوب التمسك بملة «إبراهيم»؛ لأنه كان على الملة الحنيفية يرشد إلى ذلك قوله تعالى:

﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران:٩٥].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [البقرة:١٣٠].

-والله أعلم-

الفصل الثالث : دعوة «موسى» -عليه السلام-

وفيه مبحثان:

المبحث الأول : الشرك الذى واجهه «موسى»، وإبطاله له:

وسأتناول فى هذا المبحث بإذن الله تعالى القضايا الآتية:

أ) نسب «موسى» -عليه السلام.

ب) نشأة «موسى» -عليه السلام.

ج) خروج «موسى» من مصر إلى مدين.

د) اصطفاء الله لـ «موسى» وعودة «موسى» إلى مصر رسولاً إلى فرعون.

هـ) نوع الشرك الذى واجهه «موسى» -عليه السلام.

و) «موسى» يقيم الدليل على صدق نبوته.

ز) المباراة التى جرت بين «موسى» والسحرة، ونتائجها.

المبحث الثانى : عرض نبيّ الله «موسى» للتوحيد، ودعوته إليه:

وسأتناول فى هذا المبحث القضايا الآتية لصلتها الوثيقة بموضوع البحث:

أ) «موسى» يدعو فرعون إلى عبادة الله وحده.

ب) أنواع المعارضة التى واجهها موسى.

ج) خروج «موسى» من مصر، وغرق فرعون وجنوده.

د) عودة بنى إسرائيل إلى الشرك.

وهذا تفصيل الكلام على هذه القضايا حسب ترتيبها:

أ) نسب «موسى» -عليه السلام

هو : موسى بن عمران بن قاهث بن عازر بن لاوى بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم -عليهم السلام[١].

ب) نشأة «موسى» -عليه السلام

يذكر المؤرخون أن نبىّ الله «يوسف» -عليه السلام- استقدم أباه، وإخوته، وجميع أسرهم للإقامة فى مصر وطلب «يوسف» من ملك مصر آنذاك، أن يسكنهم أرض جاسان وهى فى شمال بلبيس إحدى مدن مصر وكانت العلة فى طلب «يوسف» ذلك أن أرض جاسان أرض مراع، وأهله وعشيرته كانوا رعاة ماشية، ثم دارت عجلة الزمن وجاء رمسيس الثانى، فرأى أن بنى إسرائيل يتضاعف عددهم، فخاف أن يكونوا عونًا لأعداء مصر فاستخدمهم فى أشق الأعمال لإضعاف قوتهم، وأمعن فى تفريقهم شيعًا، وأحزابًا، ثم إن الكهنة أخبروا فرعون مصر بأن زوال ملكه سيكون على يد مولود يولد فى بنى إسرائيل، فأمر فرعون بقتل كل مولود ذكر حتى لا يكثر عددهم، وبعد ذلك دبّ الموت والفناء فى الشيوخ الكبار، من بنى إسرائيل، فدخل رؤساء القبط على فرعون وقالوا له:

إن الموت قد وقع فى الكبار من بنى إسرائيل، وأنت تأمر بقتل صغارهم ونحن نخشى أن لا يبقى أحد من بنى إسرائيل للخدمة؛ لذلك نريد منك أن تأمر بقتل الغلمان سنة، ويتركون سنة حتى لا يهلك جميع أبناء بنى إسرائيل، وفى السنة التى لا يقتل فيها أحد من الغلمان ولد «هارون»، فترك وشأنه وتربى فى أحضان والديه.

أمّا «موسى» فقد صادفت ولادته العام الذى يذبح فيه الأطفال، ولما ولدته أمه خبأته عن العيون، ولم يتسرب خبره إلى فرعون، مكث «موسى» بعد ولادته فترة زمنية قصيرة وهو فى كنف والديه، ثم بعد ذلك خافت أمه أن ينكشف الستر ويعلم فرعون بموسى، فألهمها الله تعالى أن تهيىء له صندوقًا وتضعه فيه، ثم تلقى الصندوق فى نهر النيل.

---

(١) انظر : البداية والنهاية لابن كثير جـ١ ص ٢٣٧ .

ورحمة بها فقد أزال الله من روعها، وبشرها بأنه سيرجع إليها ولدها، وسيكون من المرسلين.

انتشل بعض آل فرعون الصندوق من الماء، وعندما فتحوه ووقعت عين امرأة فرعون على الطفل «موسى» ألقى الله محبته فى قلبها، وخشيت من زوجها أن يقتله كما قتل أولاد بنى إسرائيل فقالت له: هذا الولد سيكون قرّة عين لى ولك، لا تقتله عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا، بعد أن حرمنا من الأولاد، فوافقها فرعون على ذلك واستبقاه لها، وهكذا نجا «موسى» من الهلاك المحقق.

وكان فرعون، ووزيره هامان وجنودهما لا يدرون ما يخبئه القدر لهم من أنهم انتشلوا من سيكون لهم عدوا ومصدراً لحزنهم، وسبباً لهلاكهم بسبب كفرهم، وطغيانهم. هذا ما كان من أمر «موسى» أمّا ما كان من أمر أمه فإنها بعد أن ألقت «موسى» فى النهر أرسلت أخته تقتفى أثره، فرأت أنه التقط وأدخل دار فرعون، فأخبرت أمها بذلك، فطار عقلها لهذا النبأ من الخوف، والجزع، وصار قلبها خالياً من كل شىء إلا من ذكر «موسى»، وكادت لشدة لهفتها أن تكشف سرها، لولا أن ثبت الله فؤادها وجعلها من المطمئنين إلى وعده بإرجاعه لها.

جاءوا لـ«موسى» بالمراضع، ولكنه عافهن جميعًا، فتقدمت أخته وعرضت عليهم أن تدعو لهم امرأة ترضعه، فقبلوا ذلك فجاءت بأمه، فاستأنس بها «موسى» وأخذ ثديها، وهكذا ازدادت أم «موسى» يقيناً بأن وعد الله حق بعد أن أرجع إليها ولدها.

من هذا يتبين أن نبىّ الله «موسى» عليه السلام نشأ فى بيت فرعون فى أرض مصر، وقد قصّ القرآن علينا ذلك بأبلغ عبارة، وأفصح أسلوب، فقال تعالى:

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن

كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾[1] [القصص:٧-١٣].

وقال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾ [طه:٣٧-٤٠].

ج) خروج «موسى» من مصر إلى مدين[2]

شبّ نبيّ الله «موسى» -عليه السلام- في بيت فرعون مصر وكان «موسى» قويّ الجسم، وافر القوة، ولم يخف عليه أنه إسرائيلى من ذلك الشعب المضطهد، وفي يوم من الأيام غادر «موسى» قصر فرعون، ودخل المدينة فجأة دون أن يعلم به أحد، ومر بشوارع المدينة للنزهة فوجد رجلين يتشاجران، أحدهما إسرائيلى، والآخر مصرى، فاستغاث الإسرائيلى بموسى، فأخذ موسى فى نصرته، ووكز خصمه المصرى وكزة كانت القاضية عليه، فندم «موسى» على فعلته واعتبرها من عمل الشيطان، ثم استغفر الله تعالى عما صدر منه وتضرع إليه فتاب الله عليه. وفى اليوم التالى خرج «موسى» إلى المدينة وهو يخاف افتضاح أمره، فوجد ذلك الإسرائيلى الذى نصره بالأمس يتشاجر مع مصرى آخر، فاستغاثه الإسرائيلى على المصرى وطلب نصرته، فغضب «موسى» من مشاكسة

---

(١) روى «الأصمعى» أنه سمع جارية فقال لها: قاتلك الله ما أفصحك فقالت له: أو بعد قوله تعالى فصاحة: «وأوحينا إلى أم موسى . . . وجاعلوه من المرسلين» فجمع الله فى آية واحدة بين أمرين، ونهيين، وخبرين متضمنين بشارتين» اهـ.

(٢) مدين: بفتح أوله، وسكون ثانيه، وفتح الياء المثناة من تحت، وآخره نون: بلاد واقعة حول خليج العقبة عند نهايته الشمالية. وقال أبو زيد الأنصارى ت٢١٥هـ: مدين على بحر القُلْزُم محاذية لتبوك على نحو ست مراحل، وبها البئر التى استقى منها «موسى»اهـ. انظر: معجم البلدان لياقوت الحموى جـ٥ ص ٧٧.

الإسرائيلى وميله إلى ذلك، ثم أراد موسى أن يتدخل بينهما ليفض النزاع فخاف الإسرائيلى وظن أن «موسى» يقصد قتله هو فقال له:

﴿ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [القصص:١٩].

فلم يكد المصرى يسمع هذا الكلام حتى ذهب إلى أهل القتيل، وأخبرهم بخبر «موسى»، فتألب القوم على «موسى» وأخذوا يبحثون عنه للفتك به، وسمع بالأمر رجل مخلص لموسى فجاءه من أقصى المدينة مسرعًا وأخبره بما يدبره القوم له، ونصحه بأن ينجو بنفسه ويخرج من مصر حتى لا تمتد إليه يد بسوء، فقبل «موسى» النصيحة وفرّ هاربًا متوجسًا خيفة، داعياً الله تعالى أن ينجيه من القوم الظالمين، وقد صور «القرآن» هذه الأحداث كلها بأبلغ عبارة، وأفصح بيان فقال عز من قائل:

﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ ﴾ [القصص: ١٥-٢٢].

خرج «موسى» من مصر إلى أرض مدين بعد مشقة عظيمة، ولما ورد ماء مدين وجد عنده حشداً عظيماً من الناس قد تزاحموا عليه بشدة كل منهم يعتمد على قوته فى طلب الماء، ورأى «موسى» على مقربة من الماء فتاتين تهشان غنمهما لئلا تقترب من الماء خوفًا من شدّة الزحام.

رأى «موسى» هذا المشهد فعجب لأمرهما، فتقدم وسألهما عن شأنهما، فأجابتاه: أتينا لنسقى غنمنا، ولكن لشدة الزحام لن نستطيع السقيا حتى ينصرف الرعاة، وأبونا شيخ كبير لا يستطيع الخروج بالغنم إلى الماء، ثارت حمية «موسى» وسقى لهما غنمهما، ثم بعد ذلك اتجه إلى الظل ليستريح سائلا الله تعالى بقوله: «ربّ إنى لما أنزلت إلىّ من خير فقير».

وبعد فترة من الزمن جاءته إحدى الفتاتين وهى تمشى على استحياء فقالت له: «إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا»، فلما ذهب «موسى» إلى والد الفتاتين أفضى إليه بسرّه.

فوقف منه الشيخ موقف الشخص الكريم، وطمأنه وقال له: لا تخف لقد نجوت من القوم الظالمين.

وكان «موسى» شخصًا قويًا نبيلا، فأثار فى نفس الشيخ وبنتيه الإعجاب، ولهذا قالت إحدى البنتين لأبيها: يا أبت استأجره لرعى ماشيتنا ليكفينا مؤونة هذا العمل، إن خير من استأجرت القوى الأمين، فأسرع الشيخ إلى تحقيق رغبة ابنته وطلب إلى «موسى» أن يخدمه، فيرعى له الغنم ثمانى سنوات نظير أن يزوجه بإحدى بناته، وإن زاد المدة سنتين فتلك مكرمة جليلة، فقبل «موسى» طلب الشيخ، وتم الاتفاق بينهما على ذلك، وقال عز من قائل:

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [القصص:٢٣-٢٨].

د) اصطفاء الله «لموسى» وعودة «موسى» إلى مصر رسولا إلى فرعون

بعد أن أتم «موسى» -عليه السلام- السنين المتفق عليها فى خدمة الشيخ توجه بأهله قاصداً مصر مسقط رأسه، والتى فيها قومه وعشيرته، وظل سائرا بهم حتى وصل طور سيناء وفى ليلة شديدة البرد رأى نوراً على بُعد فخيل إليه أنه نار، فقال لأهله : امكثوا مكانكم إنى أبصرت ناراً سأذهب إليها لعلى آتيكم منها بقبس نستضىء به، أو آتيكم بجذوة منها لعلكم تستدفئون بها.

فلما قرب «موسى» من موضع النور الذى رآه سمع نداء يقول له: «يا موسى إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى»، ثم أمره الله تعالى بالذهاب إلى فرعون ليبلغه الرسالة، ويأمره وقومه بعبادة الله الذى ليس هناك أحد فى الكون كله يستحق العبادة غيره.

وقد قص القرآن علينا ذلك فى أماكن متعددة، وبأساليب مختلفة، فقال تعالى:

﴿ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [الأعراف:١٤٤].

وقال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ﴾ [هود:٩٦-٩٩].

وقال تعالى:

﴿ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾ ﴾

[طه:٤٢-٤٧]

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الفرقان:٣٥-٣٦].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الشعراء:١٠-١٧].

وقال تعالى:

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴿٣١﴾ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [القصص:٢٩-٣٥].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الزخرف:٤٦].

وقال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [غافر:٢٣-٢٤].

وقال تعالى: ﴿ وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الذاريات:٣٨].

وقال تعالى: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ (١٥) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٦) اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (١٧) فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ (١٨) وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ (١٩) ﴾ [النازعات:١٥-١٩]

هـ) نوع الشرك الذى واجهه «موسى» -عليه السلام

لبّى نبىّ الله «موسى» -عليه السلام- أمر ربه، وذهب إلى فرعون ليبلغه الرسالة، وكانت مهمة «موسى» كبيرة وشاقة؛ حيث واجه نوعًا خطيراً من أنواع الشرك، تكمن خطورته فى أن فرعون - عليه لعنة الله - نصّب نفسه إلهًا، وطلب من قومه أن يعبدوه، وبعد أن استخف فرعون بعقول قومه أطاعوه، وأقروا له بالألوهية، ولما التقى «موسى» بفرعون، وأخبره بأن الله أرسله إليه رسولا استغرب فرعون كلام «موسى»، وشرع يجادله ويسأله من هو رب العالمين الذى تدعوننى إليه، فقال له موسى:

«رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين» قال فرعون لمن حوله: ألا تستمعون؟ قال «موسى»: «الله الذى أدعوكم إلى الإيمان به، هو: ربكم ورب آبائكم الأولين».

فلما أقام «موسى» الحجة على فرعون، وخشى فرعون على ملكه أراد أن ينهى هذا اللقاء لصالحه فأصدر أمره إلى وزيره هامان بأن يبنى له قصراً عاليًا حتى يطلع إلى الإله الذى يدعو «موسى» إليه، وقد صور القرآن هذه المشاهد كلها بأبلغ عبارة فقال عز من قائل:

﴿ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ (٢٣) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ (٢٤) ﴾ [النازعات:٢٣-٢٤].

وقال تعالى: ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٣) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٤) ﴾ [الزخرف:٥١-٥٤].

وقال تعالى:

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٣٨) ﴾ [القصص: ٣٨].

و) «موسى» يقيم الدليل على صدق نبوته

شاءت إرادة الله تعالى أن يؤيد رسله بالآيات الواضحات على صدق رسالتهم، ونبىّ الله «موسى» -عليه السلام- أيده الله تعالى بعدد من الآيات التى تعتبر دليلاً واضحًا لا مراء فيه على أنه رسول يبلغ عن الله تعالى، وفى مقدمة هذه الآيات: العصا، واليد؛ فالعصا كان يلقيها على الأرض فتنقلب حية حقيقية تتلوى، وتهتز، وتتحرك، وتلقى الرعب فى قلوب الناظرين. واليد كان يضمها إلى جيبه ثم يخرجها فتظهر بيضاء متلألئة لها بياض حسن، وبهاء جميل.

فلما ذهب «موسى» إلى فرعون وأمره بعبادة الله تعالى هدّد فرعون «موسى» وقال له: «لئن اتخذت إلهًا غيرى لأجعلنك من المسجونين» قال له «موسى»: «أوَ لَوْ جئتك بشىء مبين» أى واضح الدلالة على صدق نبوتى، قال له فرعون: فأت به إن كنت من الصادقين، فألقى موسى عصاه فإذا هى ثعبان عظيم، ونزع يده بأن أخرجها من جيبه فإذا هى بيضاء للناظرين.

فلما رأى فرعون هذه الآيات البينات تكبر واستعظم وقال لملئه: إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره، فماذا تأمرون؟ فقال له قومه: الرأى عندنا إقامة مباراة بين «موسى» والسحرة، وقد قص القرآن علينا كل ذلك فقال عز من قائل:

﴿ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الشعراء:٢٩-٣٧]

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾

وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ ﴾ [الأعراف:١٠٤-١١٢].

ز) المباراة التى جرت بين «موسى» والسحرة . ونتائجها

سبق أن أشرت فى الفقرة السابقة أنه جرى حوار بين نبىّ الله «موسى» وفرعون، فى شأن وحدة الألوهية، وقد طلب فرعون من «موسى» دليلاً يشهد له على صدق رسالته، فألقى «موسى» عصاه من يده فإذا هى ثعبان عظيم يتحرك، وأخرج يده من جيبه فإذا هى بيضاء للناظرين تتلألأ من شدة البياض.

فلما رأى فرعون وقومه هاتين المعجزتين العظيمتين فبدلا من أن يؤمنوا بالله تعالى اتهموا «موسى» بالسحر، وقالوا: إن ما جئت به إن هو إلا نوع عظيم من السحر، واتفق فرعون وقومه على أن تجرى مباراة بين «موسى» والسحرة فى يوم عظيم حتى يضع حدا لنهاية الدعوة التى جاء بها «موسى» -عليه السلام- ، وأرسل فرعون أعوانه فى جميع أنحاء مصر ليجلبوا له كبار السحرة من كل مكان.

ولما جاء اليوم الموعود لالتقاء نبىّ الله «موسى» والسحرة وكان ذلك فى يوم الزينة، ولعله كان أعظم أعيادهم، ولما التقى «موسى» والسحرة دار الحوار التالى بينهما: فقال السحرة: يا موسى أتبدأ أنت بإلقاء عصاك أم نكون نحن البادئين؟

فأجابهم «موسى»: بل ألقوا أنتم ما عندكم، فألقوا حبالهم، وعصيهم فامتلأ المكان بالحيات والثعابين، وخيّل إلى «موسى» والجماهير الحاضرة أنها تسعى، فخاف الحاضرون من هذا المشهد، وأوجس فى نفسه خيفة «موسى» أيضًا، فأوحى الله إليه وقال له: لا تخف إنك أنت الأعلى، وألق ما فى يمينك فإنها ستبتلع كل ما صنعه السحرة، فاطمأن فؤاد «موسى»، وانشرح صدره، فألقى عصاه فإذا هى ثعبان عظيم، وأخذ ذلك الثعبان فى ابتلاع جميع ما صنعه السحرة من الحيات، والثعابين، فعندما شاهد السحرة ذلك بأعينهم أدركتهم عناية الله تعالى وأيقنوا أن ما فعله «موسى» نوع آخر يختلف كل الاختلاف عن السحر، وأيقنوا أن «موسى» -عليه السلام- نبىّ صدق، وأن هذه معجزة له.

وعلى الفور وبدون أىّ تردد أعلن جميع السحرة إيمانهم بالله تعالى، وقالوا آمنا بالله رب العالمين ربّ موسى وهارون، وهكذا شاءت إرادة الله تعالى أن ينتصر الحق على الباطل، وأن يظهر الصدق من الكذب، ومما لا جدال فيه أن إيمان السحرة بالله تعالى من أعظم نتائج المباراة التى أمر بإجرائها فرعون عليه لعنة الله.

لما شاهد فرعون والحاضرون إيمان السحرة دبّ الرعب والفزع فى قلب فرعون، فما كان منه -بدلاً من أن يرجع عن كفره وعناده- إلاّ أن هدّد السحرة بتقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وسيصلبهم على جذوع النخل، ووبخهم بقوله إن «موسى» لكبيركم الذى علمكم السحر، فلما سمع السحرة تهديد فرعون اشتد إيمانهم بالله تعالى، وقالوا معلنين إيمانهم مرّة أخرى: لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا، وهكذا تصنع قوة الإيمان بالله تعالى، وصدق العقيدة فالمؤمن الصادق لا يبالى بالموت، وصدق قول القائل:

ولست أبالى حين أقتل مسلما   على أى جنب كان فى الله مصرعى

وقد صور القرآن بأسلوبه المعجز هذه المشاهد كلها أبلغ تصوير فقال عزّ من قائل:

﴿ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [الأعراف:١١٣ - ١٢٦].

وقال تعالى: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾ [طه:٥٧-٧٦].

وقال تعالى: ﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الشعراء:٣٨-٥١].

المبحث الثانى : عرض «موسى» للتوحيد ودعوته إليه

أ) «موسى» يدعو فرعون إلى عبادة الله وحده

سبق أن قررت أن نبىّ الله «موسى» -عليه السلام- واجه نوعًا خطيراً من أنواع الشرك، حيث وجد فرعون نادى فى قومه وقال لهم: «أنا ربكم الأعلى»، وكان نتيجة ذلك أن آمن به قومه.

من هذا المنطلق كان من المهام الأساسية لنبىّ الله «موسى» أن يدعو فرعون، وقومه، إلى عبادة الله وحده، وترك عبادة الأشخاص لأنها عبادة باطلة، ونبىّ الله «موسى» عندما جاء إلى فرعون جاءه وهو مزود بتوجيهات الله تعالى، وتتمثل هذه التوجيهات فى مثل قوله تعالى:

﴿ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ [طه:٤٢-٤٤].

فلما التقى «موسى» بفرعون، كان من عوامل نجاح الدعوة أن تعتمد على عدد من العناصر التى تكفل نجاح الدعوة، وأهم هذه العناصر إقامة الأدلة الواضحة على أن الإله الذى يدعو إليه «موسى» يتمتع بصفات أزلية قديمة يستحيل أن توجد أو تحقق فى أحد سواه:

فمن الأدلة التى ذكرها «موسى» قوله: الإله الذى أدعوكم لعبادته وحده، هو الذى بيده مقاليد الأمور كلها، وبناء عليه فإنه يجب على كل مخلوق أن يتوكل عليه دون سواه، ولن يتحقق التوكل الحقيقى إلا إذا توفر الإخلاص الكامل لله تعالى، والإخلاص هو روح العبادة، وأىّ عبادة بدون إخلاص لا يقبلها الله تعالى، ونظراً لأهمية الإخلاص فقد قال تعالى:

﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ ﴾ [البينة:٥].

وعن أبى هريرة -رضى الله عنه- أن النبى ﷺ قال: «إن الله لا ينظر إلى أجسامكم، ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[١].

(١) رواه مسلم، انظر: رياض الصالحين ص ٧.

ومن الأدلة التى ذكرها «موسى» قوله: الإله الذى أدعوكم لعبادته وحده، هو الذى خلق جميع الكائنات، فمن شاء الله له الهداية شرح صدره للإسلام، وقذف فى قلبه نور الإيمان، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور، ومنها قوله: الإله الذى أدعوكم لوحدانيته، هو رب السماوات والأرض وما بينهما، وهو الخالق لهما من العدم، وعلى غير مثال سبق، استمع إلى قول الله تعالى:

﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾ [فصلت:٩-١٢].

وقد قصّ القرآن علينا الأدلة التى ذكرها «موسى» فى أبلغ عبارة، وأوضح أسلوب، فقال عز من قائل:

﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾

[طه:٤٩-٥٠]

وقال تعالى: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ﴾ [طه:٥٣-٥٤].

ب) أنواع المعارضة التى واجهها «موسى»

الأنبياء جميعاً - عليهم الصلاة والسلام - مكلفون بتبليغ الرسالة التى كلفهم الله بها، وليس عليهم هداية الخلق، يشير إلى ذلك قوله تعالى فى شأن نبينا «محمد» ﷺ:

﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ... ﴾ [البقرة:٢٧٢].

وكل نبىّ من الأنبياء واجه معارضة شديدة من قومه، ونبىّ الله «موسى» واجه نفس المعارضة، وحاربه قومه بما يسمّى فى العصر الحديث: بالحرب النفسية، فوجهوا إليه صنوفاً من الاتهامات التى ما أنزل الله بها من سلطان، وكان الهدف من وراء كل هذا، هو

تشويه سمعته؛ كى لا يتبعه ولا يؤمن برسالته أحد، ومن التهديدات التى واجهها «موسى» قول فرعون له:

﴿ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الشعراء:٢٩].

كما أنهم كانوا يضحكون منه ليثنوه عن تبليغ رسالته، يؤيد ذلك قول الله تعالى:

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الزخرف:٤٧].

كما أنهم اتهموه -عليه السلام- بالسحر والجنون، يرشد إلى ذلك قوله تعالى:

﴿ وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الذاريات:٣٨-٣٩].

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ ﴾ [يونس:٧٥:٧٦].

ج) خروج «موسى» وقومه من مصر وغرق فرعون وجنوده

بينت فى الفقرة السابقة مدى المعارضة الشديدة التى لقيها وواجهها نبى الله «موسى» من فرعون حتى وصل التهديد ذروته وهدّد فرعون نبيّ الله «موسى» بقوله له:

﴿ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الشعراء:٢٩].

بعد ذلك أمر الله «موسى» بالخروج من مصر هو وقومه، فانطلق ببنى إسرائيل سراً قاصداً فلسطين ليلاً، كما قال تعالى:

﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الدخان:٢٣].

علم فرعون بهروب «موسى» فأرسل أعوانه وجنوده فى جميع مدن مصر يدعون الناس للخروج بجيش جرار كى يقتفوا أثر «موسى» وقومه، وليدركوهم قبل أن يتم دخولهم أرض فلسطين، وصل «موسى» وبنو إسرائيل إلى ساحل البحر الأحمر على خليج السويس، فأدركهم فرعون وجنوده ساعة شروق الشمس، عندئذ أيقن بنو إسرائيل بالهلاك،

وقالوا لموسى: إن البحر أمامنا، وفرعون وجنوده خلفنا، فما الحيلة يا موسى؟ أجابهم نبيّ الله «موسى» إجابة الواثق بعناية الله تعالى فقال لهم: لا تخافوا إن الله تعالى سيفرج كربنا وسينجينا من هذا الكرب العظيم.

فى هذه اللحظة الرهيبة جاء فرج الله تعالى وأوحى الله - عزّ وجل- لموسى بأن يضرب البحر بعصاه، فامتثل «موسى» أمر الله تعالى، وضرب البحر بعصاه فانشق الماء، وأصبح فيه اثنا عشر طريقاً يبسا على عدد أسباط بنى إسرائيل، ووقف الماء بقدرة الله تعالى وانحسر عن الجرى، سار بنو إسرائيل في الطرق المفتحة لهم فى البحر.

وفى هذه اللحظة أشرف فرعون على الموضع الذى عبر منه بنو إسرائيل فرأى طريقًا فى البحر، فاقتحم هو وجنوده هذا الطريق خلف بنى إسرائيل، فانطبق الماء على فرعون وجنوده فغرقوا جميعًا، وأنجى الله «موسى» ومن معه من بنى إسرائيل، ولما أدرك فرعون الغرق، وأيقن بالهلاك، اعترف بوحدانية الله تعالى وقال:

﴿ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس:٩٠].

ولكن نظراً لأن إيمان فرعون جاء متأخراً، وفى لحظة لا تقبل فيها التوبة، ردّ الله توبته فلم يقبلها، والدليل على ذلك قول الله تعالى:

﴿ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [يونس:٩١].

ثم بعد ذلك أمر الله البحر أن يقذف جثة فرعون على الشاطئ كى يراه الناس، وليظل عبرة عبر التاريخ لكل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، وصدق الله حيث قال: ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ... ﴾ [يونس:٩٢].

وقد صور القرآن هذا المشهد العظيم أى خروج «موسى» وقومه من مصر وغرق فرعون وجنوده، فقال عز من قائل :

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لاَّ تَخَافُ دَرَكًا وَلا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ ﴾ [طه:٧٧-٧٩].

وقال تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الشعراء:٥٢-٦٨].

د) عودة بني إسرائيل إلى الشرك

بعد أن نجّى الله بنى إسرائيل من فرعون، وجنوده، وخرجوا من البحر سالمين بفضل الله تعالى، مرّوا على قوم يعبدون أصناماً، من دون الله تعالى، فطلبوا من «موسى» أن يتخذ لهم صنماً يعبدونه مثل هؤلاء الوثنيين، فلامهم نبيّ الله «موسى» على هذا، وقال لهم: هؤلاء القوم الذين يعبدون الأصنام مصيرهم إلى الهلاك كما أهلك الله فرعون وجنوده.

يشير إلى كل هذا قول الله تعالى:

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾

[الأعراف:١٣٨-١٤٠]

ولما ذهب «موسى» إلى مناجاة ربه مدّة ثلاثين ليلة، يعطيه بعد انقضائها التوراة بعد أن عهد إلى أخيه «هارون» بالخلافة على بنى إسرائيل مدّة غيبته، انتهز السامريّ غيبة نبى الله «موسى» وجمع الحليّ الذى مع نساء بنى إسرائيل، ثم ألقى بذلك الحليّ فى النار وسبك منه عجلا، وصاغه بطريقة هندسية خاصة، ثم ألقى فى جوف العجل قبضة من تراب كان أخذها من أثر حافر فرس «جبريل» أثناء عبورهم البحر، فأصبح العجل إذا دخلت

الريح فى جوفه تعطى صوتًا من فمه كصوت البقر، ثم قال لهم السامرىّ هذا إلهكم، وأمرهم بعبادته فأطاعوه.

لما عكف بنو إسرائيل على عبادة العجل، تصدى لهم «هارون» بالزجر وبين لهم أن هذا لا يجوز، ولا يصح أن يعبد غير الله تعالى، ولكن ذهبت كل محاولاته مع الرياح سدى.

أخبر الله تعالى نبيه «موسى» بأن قومه قد فتنهم السامرى عن دينهم، وأصبحوا يعبدون العجل الذى صاغه لهم. ولما انتهت مدّة مناجاة «موسى» التى مكثت أربعين ليلة، تكرم الله عليه وأنزل عليه التوراة، ثم بعد ذلك كرّ «موسى» راجعا إلى قومه وهو فى أشدّ الغضب والألم من صنيع قومه الذى لا يفعله أىّ شخص عنده مثقال ذرة من عقل.

ولما عاد «موسى» إلى قومه وجه لومه وعتابه إلى أخيه «هارون» قائلا له: «ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن» فأجابه «هارون» إجابة صريحة وقال له: «يا ابن أمّ لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى إنى خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل ولم ترقب قولى».

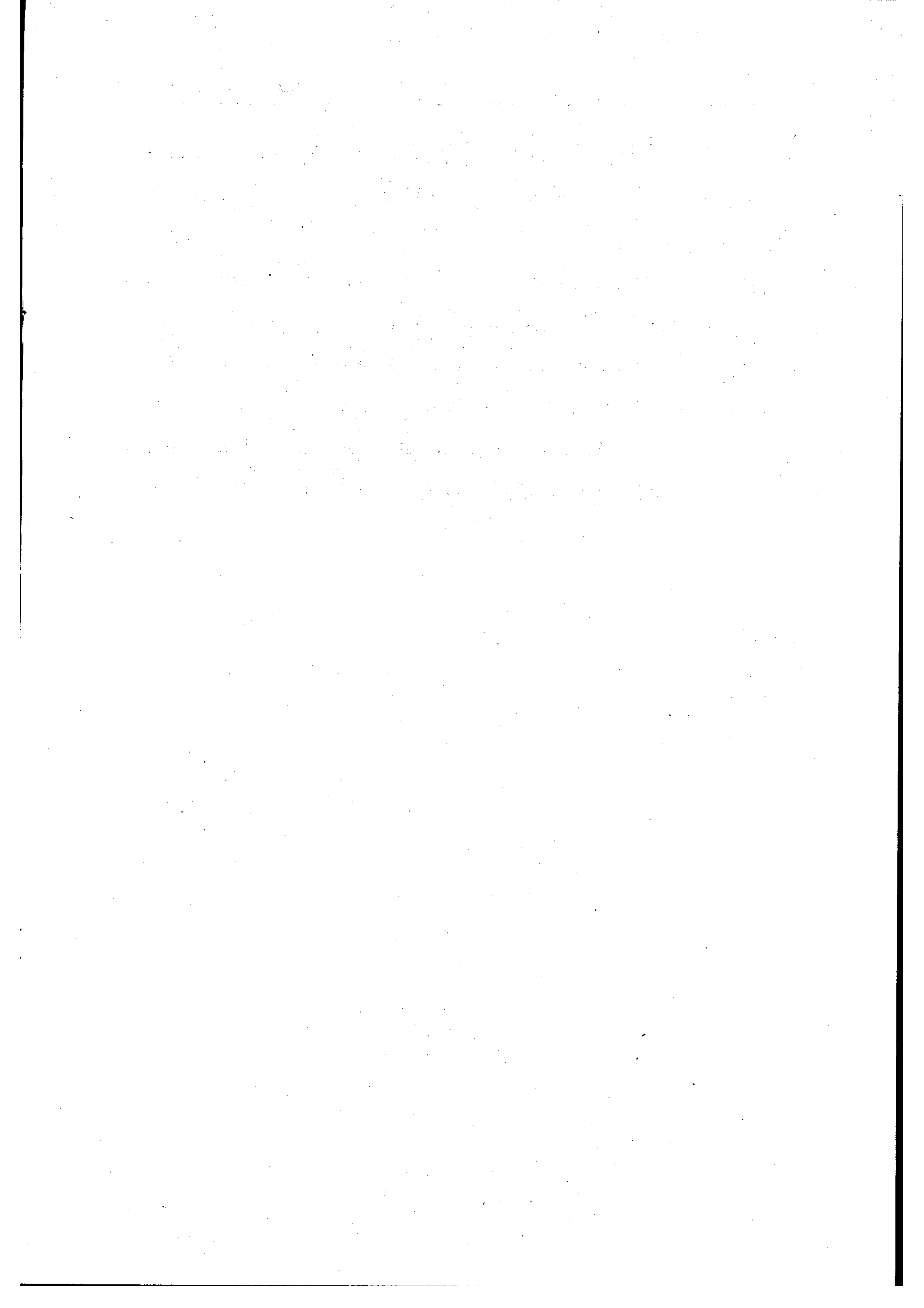
ثم التفت «موسى» إلى السامرى وقال له: «ما شأنك يا سامرىّ» فأجابه السامرىّ بقوله: بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لى نفسى، فدعا عليه نبى الله «موسى» وقال له: «اذهب فإن لك فى الحياة أن تقول لا مساس وإن لك موعداً لن تخلفه»، فذهب السامرى هائمًا على وجهه فى الأرض وكان يتألم ألمًا شديداً من مسّ أى إنسان له، فكان إذا لقيه إنسان، وخشى أن يمسه يقول: لا مساس.

ثم أمر نبى الله «موسى» بإحراق العجل، فأُحرِق ثم ذرّى ترابه فى البحر، وقد صور القرآن كل هذه المشاهد بأبلغ عبارة وأروع أسلوب فقال عز من قائل:

﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ (٨٣) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي (٨٦) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ

خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلا يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَا بْنَؤُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ ﴾ [طه:٨٣-٩٨].

-والله أعلم-



الفصل الرابع : دعوة «عيسى» - عليه السلام -

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : الشرك الذى واجهه «عيسى» - عليه السلام - وإبطاله له:

وسأتناول فى هذا المبحث - بإذن الله تعالى - القضايا الآتية:

أ) نسب نبىّ الله «عيسى» -عليه السلام.

ب) ميلاد «عيسى» -عليه السلام.

ج) نبوة «عيسى» -عليه السلام.

د) نوع الشرك الذى واجهه «عيسى»، وإبطاله له.

المبحث الثانى : عرض نبىّ الله «عيسى» - عليه السلام - للتوحيد، ودعوته إليه:

وهذا تفصيل الكلام على هذه القضايا حسب ترتيبها :



المبحث الأول: الشرك الذى واجهه «عيسى» - عليه السلام - وإبطاله له

أ) نسب نبىّ الله «عيسى» -عليه السلام

هو عيسى ابن مريم بنت عمران، وعمران ممن اصطفاهم الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [آل عمران:٣٣][١].

وقد اختلف المؤرخون فى نسب «عمران»، فقال محمد بن إسحاق:

هو: عمران بن باشم بن أمون بن ميشا بن حزقيا بن أحريق بن موثم بن عزازيا بن أمصيا بن ياوش بن أحريهو بن يازم بن يهناشاط بن إيشا بن أيان بن رحبعام بن سليمان بن داود » اهـ[٢].

وقال أبو القاسم بن عساكر:

هو: عمران بن ماثان بن العازر بن أليود بن أخنر بن صادوق بن عيازوز بن الياقيم بن أيبود بن زديابيل بن شالتال بن يوحينا بن برشا بن أمون بن ميشا بن حزقا بن أحاز بن موثام بن عزريا بن يورام بن يوشافاط بن إيشا بن إيبا بن رحبعام بن سليمان بن داود »[٣].

وأم «مريم» هى: حنّة بنت فاقود بن قبيل.

ب) ميلاد «عيسى» -عليه السلام

يذكر المؤرخون أن «عمران» جدّ «عيسى» كان رجلا صالحًا وكانت له مكانة اجتماعية مرموقة فى بنى إسرائيل، وكانت امرأة «عمران» «حنّة» عاقرا لم ترزق بولد وشاءت إرادة الله أنها رأت فى يوم من الأيام طائرا يطعم فراخه فتاقت نفسها للولد، وسألت الله تعالى بقلب مخلص أن يرزقها الولد، ثم نذرت وقالت: لله علىّ نذر إن حملت لأجعلن ولدى محرّرًا من جميع أعمال الحياة، وسيكون خالصًا لخدمة بيت المقدس.

يذكر المؤرخون أنها حاضت من فورها[٤].

ولما طهرت واقعها زوجها «عمران» فحملت «بمريم» -عليها السلام-، ولما أتمت شهور حملها ووضعت جاء المولود أنثى وهو «مريم» ولما كانت العادة قد جرت بأن الذى

(١، ٢، ٣) انظر: البداية والنهاية لابن كثير جـ٢ ص٢٦.

(٤) انظر: البداية والنهاية لابن كثير جـ٢ ص٥٦.

يحرر لخدمة بيت المقدس الغلمان فقط دون النساء، قالت معتذرة: «رب إنى وضعتها أنثى» والله تعالى عالم بما وضعت؛ لأنه لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء، ثم إن «حنّة» سمت مولودتها «مريم» وسألت الله تعالى أن يحفظها وذريتها من الشيطان الرجيم، فاستجاب الله دعاء «حنّة» وحفظ «مريم»، وابنها «عيسى» من الشيطان الرجيم.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر عن الزهرى عن ابن المسيب عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال: «ما من مولود إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخا من مسّ الشيطان إياه إلا مريم وابنها»، ثم يقول أبو هريرة: اقرأوا إن شئتم، «وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم» اهـ(١).

ذهبت «حنّة» ببنتها «مريم» إلى بيت المقدس، وأودعتها فى رعاية سدنته وفاء لنذرها.

تنافس السدنة فى كفالتها، وبعد إجراء القرعة بينهم أصبح الكافل لها «زكريا» -عليه السلام-، وهو زوج خالة «مريم».

جعل «زكريا» عليه السلام محرابا خاصا «لمريم» وجعل مفتاحه معه كى لا يدخل المحراب أحد غيره، ثم أخذ فى رعايتها رعاية تامة، ووجهها إلى عبادة الله تعالى.

ظل الأمر على ذلك حتى شاهد «زكريا» أمراً خارقًا للعادة فعجب له، وذلك أنه كان كلما دخل على مريم المحراب وجد عندها رزقا لم يأتها هو به، فضلا عن أن هذا الطعام لا وجود لأمثاله عند الناس فى ذلك الوقت، فسألها: من أين لك هذا الطعام يا مريم؟ فأجابته بقولها: «هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب»، وقد صوّر القرآن هذه الأحداث بأبلغ عبارة فقال عز من قائل:

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران: ٣٥-٣٧].

---

(١) انظر: البداية والنهاية لابن كثير جـ٢ ص٥٧.

وقال تعالى: ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [آل عمران:٤٤].

ولما بلغت «مريم» مبلغ النساء كانت فى منزلة رفيعة من العبادة ودرجة عالية من التقرب إلى الله تعالى، ثم بعد ذلك بشرتها الملائكة باصطفاء الله لها، يدل على ذلك قوله تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [آل عمران:٤٢].

كما بشرتها الملائكة بأن الله تعالى سيهب لها «ولداً» وسيكون على غير الطريقة المعتادة فى التوالد، وهذا الولد سيكون اسمه: «المسيح عيسى ابن مريم»، وسيكون لهذا «الولد» الكثير من المميزات التى لم يمنحها الله تعالى لغيره، من هذه المميزات التى اختصه الله بها فى الدنيا أنه يكلم الناس وهو طفل رضيع فى مهده كلامًا فصيحًا، كما سيكلمهم وهو رجل سويّ من غير تفاوت فى الفصاحة بين حالة الطفولة والكهولة، ومن مميزاته أيضًا أنه سيكون فى الدنيا ذا جاه وشرف وعلوّ قدر بين الناس، كما سيكون فى الآخرة مع الصفوة المختارة من أنبياء الله المقربين، ومن مميزاته أيضًا أن الله سيعلمه الكتاب والحكمة، والتوراة التى نزلت على «موسى»، وسينزل عليه كتابًا اسمه «الإنجيل»، وسيكون رسولا إلى بنى إسرائيل مؤيداً بالمعجزات. تعجبت «مريم» من هذه البشارة كيف سيكون لها ولد، وهى العذراء العفيفة الطاهرة التى لم تتزوج بعد؟ فأخبرتها الملائكة بأن هذه إرادة الله تعالى ولا رادّ لقضائه؛ لأنه إذا أراد قضاء أمر فإنما يقول له كن فيكون، وقد أشار القرآن إلى هذه المعانى بقوله تعالى:

﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ ﴾

[آل عمران:٤٥-٤٨]

سبق أن ذكرت أن «مريم» كانت وقفاً على خدمة بيت المقدس، وفى أحد الأيام اتجهت شرقى المعبد وحدها لتعبد الله تعالى، وبينما هى كذلك إذ أرسل الله إليها الروح الأمين «جبريل» -عليه السلام-، فظهر لها فى صورة رجل آدمى كامل البنية لتأنس به، ولا تنفر منه، فلما رأته «مريم» أخذها الرعب، وظنته آدمياً يريد بها سوءاً فاستعاذت منه بالله تعالى وقالت له: إنى أستعيذ بالله من شرك، وألجأ إليه ليصون عفتى وطهارتى، وأسألك بالله تعالى أن تبتعد عنى ولا تقترب منى، فطمأنها «جبريل» -عليه السلام- وهدأ من روعها، وقال لها : أنا لست بشراً كما تظنين، إنما أنا ملك من الملائكة أرسلنى الله إليك لأهب لك ولدا على غير مثال سبق، تعجبت «مريم» مما قاله «جبريل»، وقالت له: كيف يكون لى ولد ولم يمسسنى زوج، ولم أك بغيا ؟

فأجابها «جبريل»: الأمر كما قلت، وقد قال ربك: إنّ خلق غلام بلا أب هو علىّ هيّن؛ ليكون ذلك آية تدل على عظيم قدرتى، وكان خَلْق «عيسى» بلا أب أمراً مقدّراً لابدّ منه، لتتجلى عظمة الله وكمال قدرته التى لا تتقيد فى خلق الأشياء بقانون الأسباب والمسببات.

ولا ريب أن خلق «آدم» - عليه السلام - كان أبلغ وأدل على كمال قدرة الله تعالى من خلق «عيسى» -عليه السلام-، إذ خلق «عيسى» كان من أمّ، وآدم خلقه الله من غير أب ولا أم، وصدق الله حيث قال:

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾

[آل عمران:٥٩]

وقد صور القرآن المشاهد التى أشرت إليها بأبلغ عبارة فقال عز من قائل:

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ﴾ [مريم:١٦-٢١].

بعد الحوار الذى جرى بين «جبريل» -عليه السلام-، و«مريم» -عليها السلام- أيقنت «مريم» أن قضاء الله تعالى نافذ لا محالة، ولكن كيف سيتم ذلك؟ ومتى سيكون؟ لا تدرى.

نفخ «جبريل» -عليه السلام- فى جيب درعها بأمر الله تعالى فحملت على الفور بعيسى -عليه السلام-، يشير إلى ذلك قول الله تعالى:

﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾

[الأنبياء:٩١]

وقوله تعالى: ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ [التحريم:١٢].

لما أحست «مريم» بالحمل أدركت على الفور ما سيقوله الناس عنها، وما سيعيرونها به، فأفزعتها هذه الأفكار وجعلتها فى قلق واضطراب، وأصبحت تميل إلى العزلة، وتحب الانفراد، وتمنت أنها كانت لقيت منيتها قبل هذا الحدث الذى أفزعها وغير مجرى حياتها، أو كانت شيئًا لم يذكر لتفاهته.

فى هذا الجو المظلم أمام «مريم»، والشعور النفسى الذى يكاد أن يقضى عليها، أدركها لطف الله تعالى، وأحاطت بها عنايته وسمعت صوت «جبريل» -عليه السلام- يناديها من مكان تحت المكان الذى كانت به قائلا لها: لا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريًا: أى جدول ماء عذب، فما عليك إلا أن تهزى جذع النخلة، فيسقط عليك الرطب الجنىّ الذى لم ييبس فكلى منه، واشربى من جدول الماء العذب، ولا تلقى بالا لما سيقوله الناس، والزمى الصمت التام، وامتنعى عن الكلام، وإذا خاطبك أحد فأشيرى إلى مولودك الرضيع أن كلموه، فإنّ الله تعالى سينطقه وسيتولى الدفاع عنك.

عندئذ هدأ روعها، واطمأن قلبها، وسكنت أعضاؤها. ولما تمت ولادة «عيسى» -عليه السلام- حملته «مريم» وخرجت به على القوم، فكان ذلك مفاجأة لهم، حيث شاهدوا أمراً غريبًا.

ولما توجه القوم إليها بالسؤال التزمت الصمت، وأشارت إلى «عيسى» أن كلموه، فازداد عجبهم وقالوا: كيف نكلم من كان فى المهد صبيا؟

عندئذ أنطق الله «عيسى» -عليه السلام- وقال بلسان فصيح:

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [مريم:٣٠-٣٣].

وقد صور القرآن المشاهد التى ذكرتها بأبلغ عبارة فقال عز من قائل:

﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [مريم:٢٢-٣٣].

ج) نبوة «عيسى» - عليه السلام

بعث الله «عيسى» -عليه السلام- نبياً إلى بنى إسرائيل، وأنزل عليه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين، كما علم الله «عيسى» النطق بالحكمة، وعلمه أيضاً جميع الأحكام التى جاءت بها التوراة، يشير إلى ذلك قوله تعالى:

﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾ [آل عمران:٤٨].

وقوله تعالى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [آل عمران:٥٠-٥١].

أخذ «عيسى» -عليه السلام- يبشر الناس برسالته ويدعوهم إلى اتباعه، ويبين لهم ما اختلفوا فيه من الحلال والحرام... إلخ.

يدل على ذلك قوله تعالى:

﴿ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ ﴾
[الزخرف:٦٣-٦٤]

كما كان - عليه السلام - يبشر قومه بمجيء نبينا «محمد» ﷺ يرشد إلى ذلك قوله تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ... ﴾ [الصف:٦].

د) نوع الشرك الذى واجهه «عيسى» وإبطاله له

سبق أن بينت أن نبيّ الله «عيسى» -عليه السلام- ولد على غير مثال سبق، من أمّ وصفها القرآن بقول الله تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [آل عمران:٤٢]

وقد بعث الله «عيسى» -عليه السلام- رسولاً إلى بنى إسرائيل، إلى ذلك الشعب المعاند المكابر الضال المضل، الذى لم يثبت قط على منهج صحيح، ومن يقرأ تاريخهم الطويل يجد العجب العجاب، ولقد واجه نبى الله «عيسى» هؤلاء المعاندين بالصبر الجميل، ودعاهم إلى وحدانية الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة. كما جاءهم بالمعجزات الخارقة للعادة الدالة على صدق نبوته، يدل على ذلك قول الله تعالى:

﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾
[آل عمران:٤٩]

وبالرغم من هذه المعجزات الدالة على صدق نبوته إلا أنه لم يؤمن به سوى نفر قليل، وصفهم القرآن بالحواريين، يشير إلى ذلك قوله تعالى:

﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [آل عمران:٥٢-٥٣].

وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الصف:١٤].

أما بقية القوم فقد كفروا بالله، وأشركوا به، وكانوا فرقًا متعددة:

* ففرقة تدعى بأن «عيسى» ابن الله؛ لأنه خلق بدون أب، يدل على ذلك قول الله تعالى:

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [المائدة:١٧].

* وفرقة تقول الآلهة ثلاثة: «الله عز وجل- والروح القدس- وعيسى» يرشد إلى ذلك قول الله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ [المائدة:٧٣].

* وفرقة تقول: نحن أبناء الله وأحباؤه، وقد سجل القرآن عليهم ذلك فقال عز من قائل:

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾ [المائدة:١٨].

* وفرقة اتخذت الأحبار والرهبان أربابًا من دون الله، يشير إلى ذلك قول الله تعالى:

﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [التوبة:٣١].

فإن قيل: كيف واجه نبى الله «عيسى» -عليه السلام - هذه التيارات المختلفة، والمعتقدات الباطلة؟

أقول: واجه ذلك بالصبر الجميل مع الدعوة إلى وحدانية الله تعالى، وترك هذه المعتقدات الفاسدة فعندما قالوا: «إن الله هو المسيح ابن مريم» ردّ عليهم بما ذكره القرآن الكريم:

﴿ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ ﴾ [المائدة:٧٢].

المبحث الثانى: عرض «عيسى» - عليه السلام - للتوحيد. ودعوته إليه

منذ أن بعث الله «عيسى» -عليه السلام-، ودعوته قائمة على وحدانية الله تعالى، ولكن للأسف كان يجد من قومه المعارضة الشديدة، إلى أن وصل بهم الأمر إلى اتهامه بالسحر، يدل على ذلك قول الله تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ ﴾ [الصف:٦].

ومع كل ما كان يواجه من السخرية والاستهزاء، فإن دعوته إلى وحدانية الله تعالى لم تتوقف لحظة من اللحظات، يشير إلى ذلك قوله تعالى:

﴿ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الزخرف:٦٣-٦٤].

وقوله تعالى:

﴿ ... وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ ﴾ [المائدة:٧٢].

رفع «عيسى» - عليه السلام - إلى السماء

لما أعيا بنى إسرائيل شأن نبىّ الله «عيسى» -عليه السلام- قرروا التخلص منه ومن دعوته نهائيًا، ولم يجدوا وسيلة لذلك إلا قتله.

ولكن الله الذى لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء، علم مكرهم وما بيّتوه بليل، ففوّت عليهم مكرهم، ورفع «عيسى» إلى السماء، يؤيد ذلك:

قول الله تعالى:

﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ ﴾ [آل عمران: ٥٤-٥٨].

وقوله تعالى: ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ ﴾ [النساء: ١٥٧-١٥٨].

- والله أعلم -

الفصل الخامس: دعوة نبينا «محمد» -صلى الله عليه وسلم

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: الشرك الذى واجهه نبينا «محمد» -صلى الله عليه وسلم-، وإبطاله له:

وسأتحدث - بإذن الله تعالى - فى هذا المبحث عن القضايا الآتية:

أ) نسب نبينا «محمد» ﷺ.

ب) مولد نبينا «محمد» ﷺ.

ج) شمائل نبينا «محمد» ﷺ.

د) نزول الوحى بالنبوة والرسالة على نبينا «محمد» ﷺ.

هـ) الدعوة الإسلامية من السرّ إلى الجهر.

و) نوع الشرك الذى واجهه نبينا «محمد» ﷺ.

ز) نبينا «محمد» ﷺ يبطل دعوى الشرك.

ح) تبرؤ نبينا «محمد» ﷺ من عبادة الأصنام.

المبحث الثانى: عرض نبينا «محمد» -صلى الله عليه وسلم- للتوحيد، ودعوته إليه:

وسأتحدث فى هذا المبحث - بإذن الله تعالى - عن القضايا الآتية:

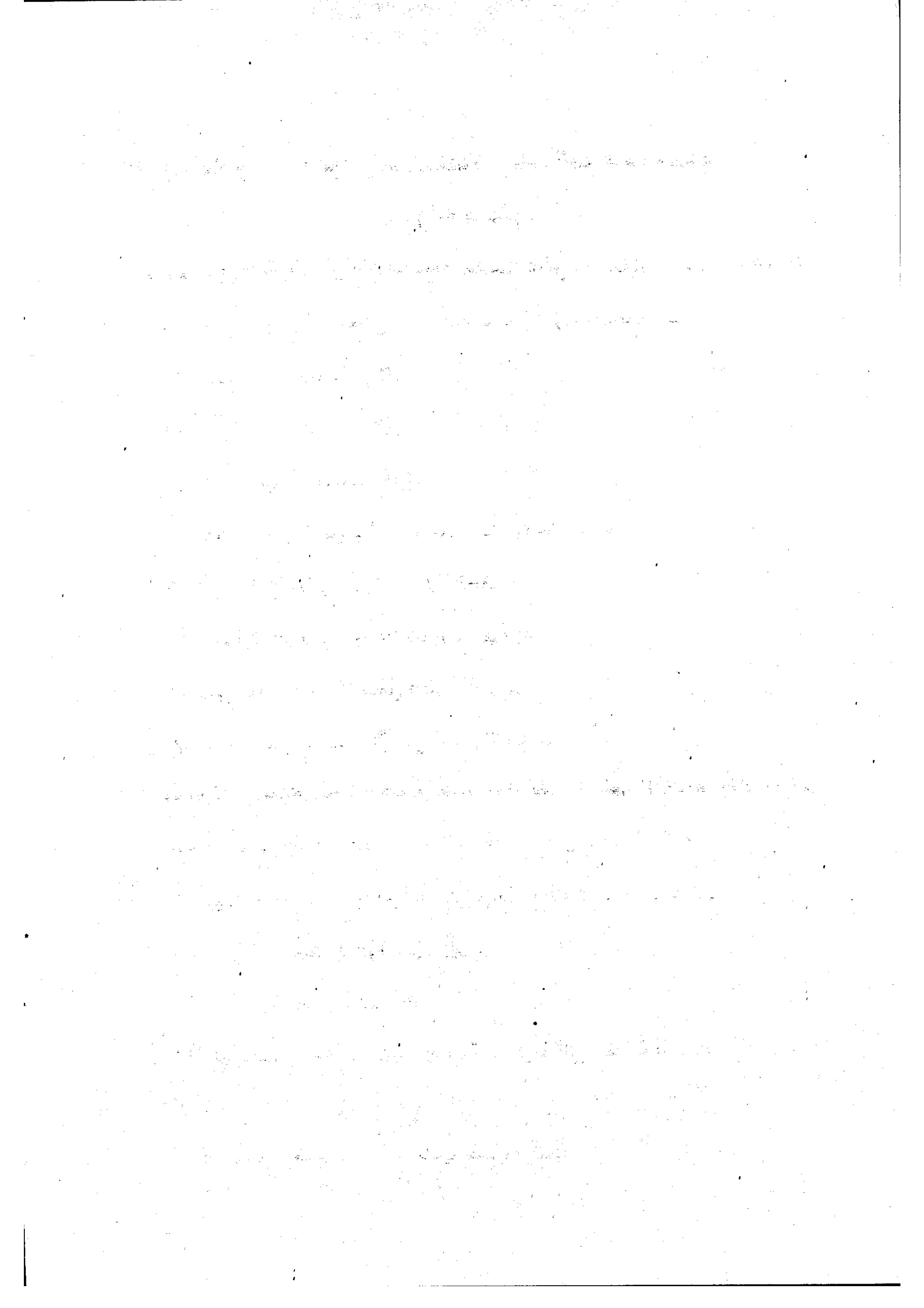
أ) نبينا «محمد» ﷺ يدعو أمته إلى وحدانية الله تعالى، ويقيم الأدلة على ذلك.

ب) معارضة قريش لدعوة النبى ﷺ .

ج) القرآن يدافع عن النبى ﷺ .

د) هجرة نبينا «محمد» ﷺ من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة.

وهذا تفصيل الكلام عن هذه القضايا حسب ترتيبها:



المبحث الأول: الشرك الذى واجهه نبينا «محمد» -صلى الله عليه وسلم-. وإبطاله له:

١) نسب نبينا «محمد» -صلى الله عليه وسلم

هو : «محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصىّ بن كلاب ابن مرّة بن كعب بن لؤىّ بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة ابن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان بن أدد بن مقرّم بن ناحور بن تيرح بن يعرب ابن يشجب بن نابت بن إسماعيل بن إبراهيم خليل الرحمن»[١].

وعن جبير بن مطعم – رضى الله عنه – أن النبى ﷺ قال: «لى خمسة أسماء أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر، وأنا الحاشر الذى يُحشر الناسُ على قدمى، وأنا العاقب» اهـ[٢].

وقال أبو موسى الأشعرى – رضى الله عنه – :

كان رسول الله ﷺ يسمى لنا نفسه أسماءً فقال: «أنا محمد، وأحمد، والمقفّى[٣]، والحاشر، ونبىّ التوبة، ونبىّ الرحمة» اهـ[٤].

وقال العباس – رضى الله عنه – : يا رسول الله إن قريشًا جلسوا فتذاكروا أحسابهم بينهم، فجعلوا مثلك كمثل نخلة فى كبوة من الأرض،[٥] فقال النبى ﷺ: «إن الله خلق الخلق فجعلنى من خيرهم من خير فرقهم وخير الفريقين، ثم تخيّر القبائل فجعلنى من خير قبيلة، ثم تخيّر البيوت فجعلنى من خير بيوتهم فأخيرهم نفسًا وخيرهم بيتا» اهـ[٦].

وعن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن النبى ﷺ قال:

«بعثت من خير قرون بنى آدم قرنا فقرنا، حتى كنت من القرن الذى كنت فيه» اهـ[٧].

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام جـ١ ص١ .
(٢) رواه البخارى، ومسلم، والترمذى انظر: التاج جـ١ ص٢٣٢ .
(٣) المقفّى: أى العاقب للأنبياء قبله، لأنه قفاهم وتبعهم فى الزمن.
(٤) رواه مسلم، انظر: التاج جـ٣ ص٢٣٢ .
(٥) أى كناسة فيها.
(٦) رواه الترمذى انظر: التاج جـ٣ ص٢٢٩ .
(٧) رواه البخارى انظر: التاج جـ٣ ص ٢٢٨ .

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن النبى ﷺ قال:

«أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع، وأول مشفع» اهـ[١].

ب) مولد نبينا «محمد» - صلى الله عليه وسلم

كان «عبد الله» والد نبينا «محمد» -عليه الصلاة والسلام- من أحب أولاد أبيه إليه، وقد زوجه أبوه من «آمنة بنت وهب» وهى من أشرف بيوت قريش، فحملت منه برسول الله ، ثم لم يلبث «عبد الله» أن خرج فى تجارة، فتوفى ودفن عند أخواله بنى عدى بن النجار بمدينة يثرب وكان له من العمر خمسة وعشرون عامًا، ولما تمت مدة حمل «آمنة» وضعت نبينا «محمداً» ﷺ يوم الإثنين الثانى عشر من شهر ربيع الأول عند طلوع الفجر عام الفيل، فعن قيس بن مخرمة - رضى الله عنه - قال: ولدت أنا ورسول الله ﷺ عام الفيل.. اهـ[٢]، ثم أرسلت آمنة رسولا إلى جدّه «عبد المطلب» تبشره بالمولود، فأقبل مسروراً، وسماه بإلهام من الله تعالى «محمداً» ولم يكن هذا الاسم شائعًا من قبل عند العرب، ولما سئل جده: لم رغبت عن أسماء آبائك؟ قال: إنى لأرجو أن يحمده أهل الأرض... اهـ.

وفى السنة السادسة من عمره خرجت به أمه آمنة إلى أخوال أبيه بيثرب وأخذت معها أم أيمن جاريتها، ولما تم مكثهم بالمدينة شهراً انطلقوا عائدين إلى مكة، فلما كانوا فى بعض الطريق بين البلدين مرضت «آمنة» بموضع يدعى: الأبواء، وما لبثت أن ماتت ودفنت فى هذا المكان، وعادت أم أيمن بالطفل اليتيم نبينا «محمد» ﷺ إلى مكة.

ظل النبى ﷺ فى كفالة جدّه عبد المطلب مدة سنتين إلى أن توفى عبد المطلب، فكفله عمه أبو طالب.

ولما بلغ ﷺ اثنتى عشرة سنة أراد عمه أبو طالب السفر بتجارة إلى الشام، وأخذ النبى ﷺ معه، ولما وصلت القافلة إلى ضاحية مدينة بُصْرى[٣] أشرف بحيرا الراهب عليها، ورأى فيمن رأى «محمداً» ﷺ، ورأى فيه أمارات النبوة التى قرأها فى كتب

---

(١) رواه مسلم، وأبو داود، انظر: التاج جـ٣، ص ٢٢٨ .

(٢) رواه الترمذى بسند حسن، انظر: التاج جـ٣، ص ٢٣١ .

(١) «بُصرى» بضم الباء والقصر، قرية من أعمال دمشق، وهى على حدود سوريا والجزيرة العربية، انظر: معجم البلدان جـ١ ص ٤٤١ .

النصرانية، فأوصى عمه أن يكون حذرا عليه من اليهود، فعمل «أبو طالب» بما نبهه إليه بحيرا، وعاد بالنبىّ ﷺ مسرعًا إلى مكة.

يؤيد هذا الحديث التالى: عن أبى موسى الأشعرى - رضى الله عنه - قال:

خرج أبو طالب إلى الشام ومعه النبى ﷺ فى أشياخ من قريش فلما أشرفوا على الراهب[١] هبطوا فحلُّوا رحالهم فخرج إليهم الراهب، وكانوا قبل ذلك يمرّون به فلا يخرج ولا يلتفت إليهم، فجاء الراهب وهم يحلون رحالهم فصار يتخللهم حتى جاء فأخذ بيد النبىّ ﷺ وقال: هذا سيد العالمين، هذا رسول ربّ العالمين، يبعثه الله رحمة للعالمين، فقال له أشياخ من قريش: ما علمك بهذا؟ فقال: إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق شجر، ولا حجر إلا خرّ ساجداً، ولا يسجدان إلا لنبىّ، وإنى أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه[٢]. مثل التفاحة، ثم رجع فصنع لهم طعامًا فلما أتاهم به وكان النبى ﷺ فى رعيّة الإبل قال: أرسلوا إليه، فأقبل وعليه غمامة تظلّه، فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فىء الشجرة، فلما جلس - عليه الصلاة والسلام - مال فىء الشجرة عليه، فقال الراهب: انظروا إلى فىء الشجرة مال عليه، قال: فبينما هو قائم عليهم وهو يناشدهم ألا يذهبوا به إلى الروم فإنهم إذا رأوه عرفوه بالصفة فيقتلونه، فالتفت فإذا بسبعة قد أقبلوا من الروم فاستقبلهم فقال: ما جاء بكم؟ قالوا جئنا إلى هذا النبىّ خارج فى هذا الشهر فلم يبق طريق إلا بُعِثَ إليه بأناس، وإنا أخبرنا خبره بُعثنا إلى طريقك هذا، فقال: هل خلفكم أحد هو خير منكم؟ قالوا. إنما اخترنا خيرة لطريقك هذا، قال: فأفرأيتم أمراً أراد الله أن يقضيه هل يستطيع أحد من الناس رده؟ قالوا لا... الحديث[٣].

ج) شمائل النبى «محمد» - صلى الله عليه وسلم

إن الحديث عن شمائل النبى ﷺ يستهوى كل كاتب، وينشرح له صدر كل مسلم.

وشمائل النبى ﷺ دونت فيها مصنفات خاصة، وحسبى أن أشير هنا إلى قبس منها، معتمداً فى ذلك على الأحاديث الصحيحة:

---

(١) اسمه «جرجيس» ولقبه «بحيرى» كان عالمًا بالنصرانية ومترهبًا مشهوراً.

(٢) أى عظم كتفه.

(٣) رواه الترمذى بسند حسن، انظر: التاج جـ٣ ص ٢٤٧.

فعن أنس - رضى الله عنه - قال: ما شممت عنبراً قط ولا مسكا، ولا شيئًا أطيب من ريح رسول الله ﷺ ولا مسستُ شيئًا قط: ديباجا ولا حريراً ألين مسّا من رسول الله ﷺ...اهـ(١).

وعن «عائشة» أم المؤمنين -رضى الله عنها- قالت: كان كلام رسول الله ﷺ كلاما فصْلا يفهمه كل من سمعه... اهـ(٢).

وعن أبى سعيد -رضى الله عنه- قال: كان النبى ﷺ أشدّ حياء من العذراء فى خدرها، وكان إذا كره شيئًا عرفناه فى وجهه.

وفى رواية: لم يكن النبى ﷺ فاحشا ولا متفحشًا وقال: إن خياركم أحاسنكم أخلاقًا... اهـ (٣).

وعن أنس - رضى الله عنه - قال: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس، وكان أجود الناس، وكان أشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة فانطلق ناس قبل الصوت فتلقاهم النبى ﷺ راجعا، وكان قد سبقهم إلى الصوت وهو على فرس عُرْى لأبى طلحة، فى عنقه السيف وهو يقول: «لم تراعوا لم تراعوا... اهـ (٤).

وعن أنس - أيضًا - قال: لما قدم النبى ﷺ المدينة أخذ أبو طلحة بيدى، فانطلق بى إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله إنّ أنسًا غلام كيّسٌ فليخدمك، قال: فخدمته فى السفر والحضر عشر سنين، والله ما قال لى لشىء صنعته لم صنعت هذا هكذا؟، ولا لشىء لم أصنعه لم لم تصنع هذا هكذا...اهـ(٥).

وعن أبى هريرة- رضى الله عنه - أن النبى ﷺ قال: «لكل نبىّ دعوة مستجابة، فتعجّل كل نبىّ دعوته، وإنى اختبأت دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة فهى نائلة إن شاء الله مَنْ مات مِنْ أمتى لا يشرك بالله شيئًا» اهـ(٦).

(١) رواه الأربعة انظر: التاج جـ٣ ص٢٣٥.
(٢) رواه أبو داود انظر: التاج جـ٣ ص٣٥٦.
(٣) رواه الشيخان انظر: التاج جـ٣ ص ٢٣٩.
(٤) رواه الشيخان انظر التاج جـ٣ ص٢٤١.
(٥) رواه الأربعة انظر: التاج جـ٣ ص ٢٤١.
(٦) رواه الشيخان، والترمذى انظر: التاج جـ٣ ص ٢٤٥.

د) نزول الوحى بالنبوة والرسالة على نبينا «محمد» -صلى الله عليه وسلم

قال الله تعالى:

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ (٥٣) ﴾ [الشورى:٥٢-٥٣].

وعن «عائشة» أم المؤمنين – رضى الله عنها – قالت:

أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبّب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء، فيتحنث[١] فيه الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله[٢]، ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى «خديجة» فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق[٣] وهو فى غار حراء، فجاءه الملك فقال اقرأ قلت: ما أنا بقارىء، قال: فأخذنى فغطنى[٤] حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلنى فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارىء، فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارىء، فأخذنى فغطنى الثالثة ثم أرسلنى، فقال:

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) ﴾ [العلق:١-٣].

فرجع بها النبى ﷺ[٥]، يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد -رضى الله عنها- فقال: زملونى زملونى[٦]، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال «لخديجة» وأخبرها الخبر: لقد خشيت على نفسى، فقالت «خديجة»: كلا والله ما يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلّ، وتكسب المعدوم، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق،

(١) أى يتعبد. (٢) ينزع إلى أهله: أى يرجع إلى أهله.
(٣) وهو جبريل عليه السلام نزل عليه يوم الإثنين لسبع عشرة من شهر رمضان، وهو ابن أربعين سنة.
(٤) فغطنى: أى ضمنى إلى صدره وعصرنى حتى بلغ منى الجهد أى المشقة.
(٥) أى رجع بهذه الآيات. (٦) أى غطونى بالثياب.

فانطلقت به «خديجة» حتى أتت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزّى ابن عمّ «خديجة» وكان امرأ قد تنصر فى الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبرانىّ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيراً قد عمى، فقالت له «خديجة»: يا ابن عمّ اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة : يا ابن أخى ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ بخبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس[١] الذى نزّل الله على «موسى» يا ليتنى فيها جَذَعا[٢] ليتنى أكون حيّا إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ : «أومخرجىّ هم؟» قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى، وإنْ يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً ، ثم لم يَنْشَب[٣] ورقة أن توفى وفتر الوحى[٤].

وقال جابر وهو يحدث عن فترة الوحى فقال فى حديثه عن النبى ﷺ : «بينا أنا أمشى إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصرى فإذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسىّ بين السماء والأرض فرعبت منه، فرجعت فقلت: زملونى زملونى، فأنزل الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥﴾ [المدثر:١-٥]، فحمى الوحى وتتابع »اهـ[٥].

المعانى التى تستفاد من حديث «عائشة» -رضى الله عنها

كان النبى ﷺ قد حببت إليه الخلوة بغار حراء فى ذلك الجبل الذى يشرف على الكعبة المشرفة، ويبعد عنها بنحو ثلاثة أميال، كان عليه الصلاة والسلام يرى أنواراً، وكان يتفكر فى ملكوت ربه، ويطيل الذكر والتفكر، وهو يعبده فى رغبة وتلهف على دين أبيه «إبراهيم»-عليه السلام.

وقبل بعثته ﷺ بزمن غير طويل كان يرى الرؤيا الصادقة فى منامه، ولا يلبث أن تتحقق أمامه فى اليقظة. وكان عليه الصلاة والسلام يأخذ زاده من بيته ويقيم فى غار حراء من عشرة إلى خمسة عشر يومًا.

---

(١) أى صاحب السرّ الإلهى الذى كان يتنزل على الأنبياء قبلك.
(٢) جَذَعا: أى شابا قويًا.
(٣) لم ينشب: أى لم يلبث ورقة بعد هذه الجلسة إلا زمنًا قليلا ثم مات.
(٤) رواه الشيخان، انظر: التاج جـ٣ ص٢٥٢.
(٥) رواه الشيخان، والترمذى، انظر: التاج جـ٣ ص٢٥٤.

ولم تكن زوجه «خديجة» -رضى الله عنها- لتضيق بهذا التغيب، بل إنها لسعيدة أن يكون لزوجها ﷺ ذلك الشأن الذى يتحدث عنه أهل مكة فى أكثر من مناسبة، وكانت الدلائل يلاحق بعضها بعضاً لتبشر بقرب بعثته، ومع اقتراب أيام البعثة كان رهبان النصارى، وأحبار اليهود، قد عرفوا العلامات التى تسبق مبعث خاتم الرسل ﷺ وبها كانوا يتحدثون، ولما أتم ﷺ أربعين عاماً، وفى غار حراء، مقر تبتله جاءه «جبريل» -عليه السلام- بوحى الله تعالى، وكان بدء الوحي يوم الإثنين السابع عشر من شهر رمضان عام ٦١٠م ثم فتر الوحى، وكان لفتور الوحى أكثر من شهر قلق وتشوق عند رسول الإنسانية - عليه الصلاة والسلام -، حتى وافاه «جبريل» قرب نهاية شهر شوال.

هـ) الدعوة الإسلامية من السرّ إلى الجهر

امتثل النبى ﷺ أوامر الله تعالى عندما نزل عليه قوله:

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ ﴾ [المدثر:١-٢].

وأخذ يدعو إلى عبادة الله تعالى سراً حذراً من خطر المفاجأة، وكان أول من آمن به: زوجه «خديجة بنت خويلد» صدقته عن قناعة، وآمنت برسالته عن حب وإخلاص، وكان على بن أبى طالب - رضى الله عنه - فى كفالة الرسول ﷺ فما كاد يسمع بالنبأ العظيم حتى بادر بإعلان إسلامه، وكان يلازم الرسول - عليه الصلاة والسلام - كلما خرج إلى الصلاة مستخفياً فى شعاب مكة.

ثم أسلم أبو بكر الصديق- رضى الله عنه - بعد إسلام على وأظهر إسلامه بين قومه داعياً إلى الله تعالى غير هيّاب، وقد استجاب إليه: عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبى وقاص، وطلحة بن عبيد الله، وأعلنوا إسلامهم لرسول الله ﷺ، وكانوا من كبار القوم وذوى الحسب فيهم، وكان أول من أسلم من الموالى زيد بن حارثة وأول من أسلم من الإماء أم أيمن وأول من أسلم من العبيد بلال بن رباح.

مكث رسول الله ﷺ يدعو إلى الله سراً ثلاث سنين، ثم نزل عليه قوله تعالى:

﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ۝٩٤ ﴾ [الحجر:٩٤].

امتثل النبى -عليه الصلاة والسلام- فصعد إلى الصفا ثم نادى بأعلى صوته : «يا بنى عبد المطلب، يا بنى عبد مناف»...إلخ، فاجتمعوا إليه، فقال: «أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدّقىّ؟»، قالوا: نعم، ما جرّبنا عليك كذباً قط، قال: «فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد»، فقال أبو لهب عليه لعنة الله: تبّا لك ألهذا جمعتنا ؟

ولكن أنّى لأبى لهب أن يفلت من عار الدنيا، وعذاب الآخرة، فقد دافع الله عن نبيه وأنزل قوله تعالى :

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾ ﴾ [المسد: ١ - ٥]

ثم بعد ذلك أمر الله نبيه بقوله: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [الشعراء:٢١٤].

فجمع النبى ﷺ عشيرته وقال لهم: «إن الرائد لا يكذب أهله، والله لو كذب الناس جميعاً ما كذبتكم، ولو غررت بالناس جميعا ما غررت بكم، والله الذى لا إله إلا هو إنى لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة، والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون، ولتجزون بالإحسان إحسانا، وبالسوء سوءا، وإنها لجنة أبدا، أو لنار أبدا» اهـ.

و) نوع الشرك الذى واجهه نبينا «محمد» -صلى الله عليه وسلم

يتبين من الدراسة المتقدمة أن عبادة الأصنام كانت منتشرة بين الأمم السابقة، وكانت تنتقل من أمة إلى أمة، وكان الأنبياء السابقون -عليهم السلام- يوجهون عنايتهم الفائقة للصدّ عن عبادة الأصنام، ويبينون بالأدلة القاطعة والبراهين الصادقة بطلان عبادتها.

ولما بعث نبينا «محمد» ﷺ واجه نفس المشكلة التى واجهها الأنبياء السابقون: فقريش، بل سكان شبه الجزيرة العربية كانت عبادة الأصنام متغلغلة فى قلوبهم، وعقولهم، وكانت أحبّ إليهم من كل شىء فى الحياة، وقد بلغ من حبهم وتقديرهم لها أن معظم الأفراد كان يصنع له صنما خاصا ويضعه فى بيته ليلجأ إليه كلما اقتضت الضرورة ذلك،

وكان ينشئ أبناءه على حبّ وعبادة هذه الأصنام، بل وصل الأمر إلى أن أشهر القبائل العربية وضعت لها أصناماً حول الكعبة المشرفة، يتضرعون إليها، ويسجدون إليها من حين إلى آخر، بل كانوا لا يقدمون على تنفيذ أمر من شئون حياتهم الهامة إلا بعد الرجوع إلى هذه الأصنام ليستغيثوا بها، ويلجئوا إليها.

كما واجه ﷺ أنواعاً أخرى من الكفر بالله تعالى، من ذلك إنكارهم للبعث وقولهم: ﴿ وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ [الإسراء: ٤٩].

وقد سجل القرآن كل ذلك، وجاءت آياته المتعددة تصور هذه المعتقدات الباطلة.

وهذا قبس من الآيات الكريمة التى أشارت بجلاء ووضوح إلى نوع الشرك الذى واجهه ﷺ: قال الله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ﴾ [الأنعام:١٠٠-١٠١].

وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [إبراهيم:٣٠].

وقال تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [النحل:٥٧].

وقال تعالى: ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً ﴿٤٠﴾ ﴾ [الإسراء:٤٠].

وقال تعالى:

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الأنبياء:٢٦].

وقال تعالى: ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الزمر:٤٣].

وقال تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [فصلت:٣٧].

وقال تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٢٢) إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ (٢٣) ﴾ [النجم:١٩-٢٣].

وقال تعالى:

﴿ وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) ﴾ [الإسراء:٤٩].

وقال تعالى: ﴿ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤) أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥) ﴾ [ص:٤-٥].

إلى غير ذلك من الآيات التى يكثر ذكرها فى القرآن الكريم، وقد تصدى النبىّ ﷺ إلى إحباط كل هذه المعتقدات الباطلة، وهذا ما سيتضح فى الفقرة التالية.

ز) نبينا «محمد» -صلى الله عليه وسلم- يبطل دعوى الشرك

من يتفهم معانى القرآن الكريم وبخاصة السور المكيّة، ويقرأ كتب التاريخ الإسلامى، يدرك بوضوح مدى الجهد الذى بذله نبينا ﷺ فى إبطال دعوى الشرك، وفى إقامة الأدلة الواضحة، على وجوب وحدة الألوهية، ولقد تحمل ﷺ في سبيل ذلك الكثير من صنوف الأذى النفسى، والبدنى.

وحسبى أن أشير هنا إلى بعض الآيات القرآنية التى جاءت ناطقة بأفصح عبارة، وأوضح بيان، فى إبطال دعوى الشرك، إذ ليس بعد القرآن حجة، أو برهان:

قال تعالى: ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا (١١١) ﴾ [الإسراء:١١١]

وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٢٩) ﴾ [الأنبياء:٢٦-٢٩].

وقال تعالى: ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [المؤمنون:٩١-٩٢].

وقال تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ ﴾ [الحج:٧١].

وقال تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ ﴾ [الأعراف:١٩٤-١٩٨].

وقال تعالى: ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا ﴿٣﴾ ﴾ [الفرقان:٣].

وقال تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [سبأ:٢٢].

وقال تعالى:

﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ﴾ [فاطر:١٣-١٤].

وقال تعالى: ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [يس:٧٤-٧٥].

وقال تعالى : ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلاً ﴿٥٦﴾﴾ [الإسراء: ٥٦].

وقال تعالى : ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنعام: ١٠٠ - ١٠١].

ح) تبرؤ نبينا «محمد» -صلى الله عليه وسلم- من عبادة الأصنام

سبق أن بينت أن النبى ﷺ واجه قومًا جبلوا على حبّ عبادة الأصنام بدعوى أنها تقربهم من الله زلفى كما بينت أن النبى ﷺ بين لجميع الكفار والمشركين بالأدلة القاطعة بطلان عبادة هذه الأصنام؛ لأنها لا تنفع ولا تضر ولا تغنى عن نفسها ولا عن غيرها من أمر الله شيئًا...إلخ، والرسول ﷺ لم يكتف بالتنديد بعبادة الأصنام بل أعلنها صريحة مدوية تبرؤه من الأصنام ومن عبدة الأصنام، كيف لا؟ وهو الذى شبّ على الصدق والأمانة، والأخلاق الفاضلة، والفطرة الصحيحة التى فطر الله الناس عليها، ولم يثبت قط أنه قبل بعثته ﷺ سجد لصنم، أو تبرك به، أو التجأ إليه، أو قرّب إليه قربانا؛ لأنه -عليه الصلاة والسلام - جُبل وفطر منذ نشأته على الملة الحنيفية، وكان يتعبد فى غار حراء على دين أبيه «إبراهيم» -عليه السلام.

والقرآن الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه جاءت آياته تشهد بتبرؤ النبى ﷺ من الأصنام ومن عبادة الأصنام، ولو أردت استقصاء جميع الآيات القرآنية الدالة على ذلك لأخذ ذلك وقتًا طويلا، وعدّ من باب الإطناب الذى يغنى عنه الإيجاز، لذلك سأكتفى بذكر بعض النصوص القرآنية التى تدل بأفصح عبارة، وأبلغ أسلوب على أن النبى ﷺ سجل تبرؤه من عبادة الأصنام، فمن ذلك قول الله تعالى:

﴿... قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ [الأنعام:١٤-١٦].

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (١٩) ﴾ [الأنعام:١٩].

وقوله تعالى:

﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (٥٦) ﴾ [الأنعام:٥٦].

وقوله تعالى:

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٤) ﴾ [يونس:١٠٤].

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨) ﴾ [يوسف:١٠٨].

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٦) ﴾ [غافر:٦٦].

وقوله تعالى:

﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (١٢) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣) قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي (١٤) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١٥) ﴾ [الزمر:١١-١٥].

وقوله تعالى:

﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (٦٤) وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ (٦٦) ﴾ [الزمر:٦٤-٦٦].

المبحث الثانى: عرض نبينا «محمد» -صلى الله عليه وسلم- للتوحيد، ودعوته إليه:

١) نبينا «محمد» -صلى الله عليه وسلم- يدعو أمته إلى وحدانية الله تعالى ويقيم الأدلة على ذلك

من الأمور الأساسية والهامة فى دعوة الرسل -عليهم السلام- الدعوة إلى «وحدة الألوهية»، حيث لا يستحق العبادة غير الله تعالى الموصوف بجميع صفات الكمال، المنزه عن جميع صفات النقص، الذى ليس كمثله شىء، الذى بيده مقاليد جميع الأمور، وصدق الله حيث قال:

﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٥٩) ﴾ [الأنعام:٥٩].

وصدق الله حيث قال:

﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (٣٤) ﴾ [لقمان:٣٤].

وحيث قال:

﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩) ﴾ [الكهف:١٠٩].

ونبينا «محمد» ﷺ اهتم اهتمامًا كبيراً بالدعوة إلى وحدانية الله تعالى، وكانت تنزل الآيات القرآنية لإقامة الأدلة على ذلك، ومن يقرأ القرآن الكريم بتدبر وإنعام نظر يجد مئات النصوص التى تدل على وحدة الألوهية، وهذا قبس من النصوص القرآنية الدالة على ذلك:

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٦٥) رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٦٦) ﴾ [ص:٦٥-٦٦].

وقال تعالى: ﴿ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢) ﴾ [هود:٢].

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف:١١٠].

وقال تعالى:

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأنبياء:١٠٨].

قال الله تعالى:

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة:١٦٣].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾﴾ [فصلت:٦].

قال الله تعالى: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [النحل:٢٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [النحل:٣٦].

هذه الآيات كلها تدل على وجود وحدة الألوهية لله رب العالمين.

ومن الآيات المتضمنة إقامة الأدلة على وجوب وحدانية الله تعالى ما يلي:

قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف:١٥٨].

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ

وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [الرعد:٢-٤].

وقال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿٥﴾ ﴾ [الملك:١-٥].

وقال تعالى:

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٥﴾ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦﴾ ﴾ [آل عمران:٥-٦].

وقال تعالى:

﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الأنعام:١٠٢-١٠٣].

وقال تعالى:

﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ (النمل:٥٩-٦٥).

ب) معارضة قريش لدعوة النبى - صلى الله عليه وسلم

بعد أن جهر رسول الله ﷺ بدعوته إلى الإسلام، وأصبح يتصل بالقبائل الوافدة إلى الحج، ويعرض عليهم الدخول فى الإسلام، أخذ موقف قريش يشتدّ فى مقاومة رسول الله ﷺ.

ولما ضاقت الحيل بكفار قريش، وأيقنوا أن ما ينالون به النبى ﷺ وصحبه من الأذى والاضطهاد لن يحول دون إقبال الناس على دين الله تعالى، عندئذ استقر رأيهم على أن يكتبوا صحيفة يتعاهدون فيها على مقاطعة النبى وعشيرته وهم: بنو هاشم، وبنو عبد المطلب، على أن تكون هذه المقاطعة تامّة بحيث لا يتزوجون منهم، ولا يزوجونهم، ولا يبيعونهم شيئا، ولا يبتاعون منهم، كتبوا هذه الصحيفة وعلقوها فى جوف الكعبة.

ظلت الصحيفة نافذا مفعولها ثلاث سنوات، والنبى ﷺ وعشيرته يعانون من الحرمان ألوانًا حتى إنهم كانوا يأكلون أوراق الشجر[١]، وبعد أن قاسى النبى ﷺ وصحبه صنوف الأذى من كفار قريش، توجه إلى قبيلة ثقيف بالطائف، لعلها تؤمن به وتنصره، ولكن كان موقف ثقيف مثل موقف كفار قريش، فقابلوه بالسخرية والاستهزاء، والأذى، حتى بلغ الأمر ذروته حيث خرج عليه السفهاء والغلمان فقذفوه بالحجارة حتى أدموا عقبه.

فى هذه اللحظة الرهيبة توجه النبى بالدعاء المشهور وقال:

«اللهم إليك أشكو ضعف قوّتى، وقلّة حيلتى، وهوانى على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت ربى ورب المستضعفين، إلى من تكلنى؟ إلى بعيد يتجهمنى؟ أم إلى عدوّ ملّكته أمرى؟ إن لم يكن بك علىّ غضب فلا أبالى، ولكن عافيتك هى أوسع لى، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك، أو يحلّ علىّ سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك» اهـ[٢].

ومن يقرأ القرآن الكريم يدرك مدى معارضة كفار قريش للنبى ﷺ ، كما يتعرّف على مدى الأذى الذى أدركه ﷺ فى سبيل الدعوة إلى عبادة الله وحده، وهذا قبس من الآيات القرآنية الواردة فى هذا الشأن:

---

(١) انظر : سيرة ابن هشام ص ٣٥٠ فما بعدها .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام ص ٤١٩ فما بعدها .

قال الله تعالى: ﴿ وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ﴾ [الفرقان:٧-٨].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [يونس:١٥].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ ﴾ [سبأ:٤٣].

وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [الحجر:٦-٨].

وقال تعالى: ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴿٤٨﴾ ﴾ [الإسراء:٤٧-٤٨].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأنبياء:٣٦].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴿٤٢﴾ ﴾ [الفرقان:٤١-٤٢].

وقال تعالى:

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الصافات:٣٥-٣٧]

وقال تعالى:

﴿ وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [القلم:٥١-٥٢].

ج) القرآن يدافع عن النبى -صلى الله عليه وسلم

سبق أن بينت بعض أنواع الأذى الذى واجهه النبى ﷺ من كفار قريش، كما ذكرت مدى المعارضة الشديدة التى شنها الكفار على الدعوة الإسلامية، وترتب على ذلك اتهامهم النبى ﷺ بالكثير من الاتهامات الكاذبة، التى لا مصدر لها سوى الحسد والكراهية، فمن ذلك قولهم:

﴿ ... يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ ﴾ [الحجر:٦].

وقولهم: ﴿ ... إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ﴾ [الإسراء:٤٧].

وقولهم: ﴿ ... أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الصافات:٣٦].

كل ذلك والنبى ﷺ صابر ومحتسب، ولم يتوقف عن تبليغ رسالة ربه.

فى هذا الجوّ الممتلئ بالآلام النفسية وغيرها، كانت آيات «القرآن» تنزل على الرسول ﷺ للدفاع عنه، ولبيان أن دعوته حق، ومما لا شك فيه أن نزول هذه الآيات كان يبعث فى نفس النبى ﷺ الطمأنينة، والسعادة، كما كان يخفف عنه الآلام التى كان يواجهها من الكفار والمشركين، وهذا قبس من الآيات القرآنية الواردة فى هذا الشأن:

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [فاطر:٢٢-٢٥].

وقال تعالى:

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الإِنسَانَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الشورى:٤٨].

وقال تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ (٢٩) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (٣٠) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (٣١) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُم بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٣٢) أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لاَّ يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ (٣٤) ﴾ [الطور:٢٩-٣٤].

وقال تعالى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ (٢) ﴾ [يونس:٢].

وقال تعالى: ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٤١) وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ (٤٢) وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لا يُبْصِرُونَ (٤٣) ﴾ [يونس:٤١-٤٣].

وقال تعالى: ﴿ فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٥٢) وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ (٥٣) ﴾

[الروم:٥٢-٥٣]

وقال تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ... ﴾ [البقرة:٢٧٢].

وقال تعالى: ﴿ ... وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ... ﴾ [المائدة:٦٧].

ج) هجرة نبينا «محمد» -صلى الله عليه وسلم- من «مكة» المكرمة إلى «المدينة» المنورة(١)

لقد كانت هجرة نبينا «محمد» ﷺ من مكة المكرمة، إلى المدينة المنورة نقطة تحول لصالح الدعوة الإسلامية؛ حيث كانت المدينة المنورة عاملا من عوامل الاستقرار، والطمأنينة، والاطمئنان على الأرواح، والأموال، والبعد عن السخرية، والاستهزاء، والتعذيب، والتنكيل الذى كان يواجه كل من يدخل الدين الإسلامى من زعماء قريش أو غيرهم، وفى المدينة المنورة تم نزول «القرآن الكريم» وتمت التشريعات الإسلامية، وأخذ نور الإسلام يعم أرجاء المعمورة، وفتحت المدن الإسلامية وتحقق قول الله تعالى :

(١) كانت هجرة النبى ﷺ فى العام ٦٢٤م.
انظر: الحديث عن هجرة النبى ﷺ فى سيرة ابن هشام ص ٤٤٨ إلى ص ٤٩٦.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾ [الصف:٩].

وما نقل النبى ﷺ إلى الرفيق الأعلى حتى نزل عليه قول الله تعالى:

﴿...الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا...﴾ [المائدة:٣].

بارك الله فى مدينة رسول الله ﷺ، وبارك الله فى الأنصار الذين سجل الله لهم أعظم، وأفضل شهادة، حيث قال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر:٩].

وكما سجل «القرآن» الفضل والشرف للأنصار، سجله أيضًا للمهاجرين الذين ساندوا الدعوة الإسلامية فى باكورة مولدها، وضحوا بكل شىء فى سبيل نشرها بما فى ذلك الأهل، والمال، والروح، والولد.

قال الله تعالى فى شأن المهاجرين والأنصار معا:

﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة:١٠٠].

ولعظم شأن الهجرة فقد أنزل الله فيها قوله:

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال:٣٠].

وقوله: ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة:٤٠].

كما ورد فيها الأحاديث الصحيحة التى سجلت أحداثها، ومراحلها، وبدايتها، ونهايتها، أقتبس من الأحاديث الواردة فى ذلك ما يلى:

فعن «عائشة» أم المؤمنين- رضى الله عنها- قالت:

لم أعقل أبوىّ قط إلا وهما يدينان الدين الإسلامى، ولم يمرّ علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله طرفى النهار بكرة وعشية، فلما ابتلى المسلمون خرج أبو بكر مهاجراً نحو أرض الحبشة حتى بلغ بَرْك الغماد[1]، لقيه ابن الدُّغُنة[2] وهو سيد القادة فقال: أين تريد يا أبا بكر؟ فقال: أخرجنى قومى فأريد أن أسيح فى الأرض، وأعبد ربى، قال ابن الدغنة: فإن مثلك يا أبا بكر لا يَخْرج، ولا يُخرج[3]، إنك تكسب المعدوم، وتصل الرحم، وتحمل الكلّ، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق فأنا لك جار[4]، فارجع فاعبد ربك ببلدك، فرجع وارتحل معه ابن الدغنة، وطاف ابن الدغنة عشيّة فى أشراف قريش، فقال لهم: إن أبا بكر لا يخرُج مثله، ولا يُخرج، أتخرجون رجلا يكسب المعدوم، ويصل الرحم، ويحمل الكلّ، ويقرى الضيف ويعين على نوائب الحق؟ فلم تكذّب قريش بجوار ابن الدغنة[5]، وقالوا له: مرْ أبا بكر فليعبد ربه فى داره فليصلّ فيها، وليقرأ ما شاء، ولا يؤذينا بذلك، ولا يستعلن به، فإنا نخشى أن يفتن نساءنا، وأبناءنا، فقال ذلك ابن الدغنة لأبى بكر، فلبث أبو بكر بذلك يعبد ربه فى داره، ولا يستعلن بصلاته، ولا يقرأ فى غير داره، ثم بدا لأبى بكر فابتنى مسجداً أى بفناء داره، وكان يصلى فيه، ويقرأ القرآن، فينقذف عليه نساء المشركين، وأبناؤهم، وهم ينظرون إليه، ويعجبون منه، وكان أبو بكر رجلا بكّاءً لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن، فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين، فأرسلوا إلى ابن الدغنة فقدم عليهم، فقالوا: إنا كنا أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه فى داره، فقد جاوز ذلك فابتنى مسجداً بفناء داره فأعلن بالصلاة، والقراءة فيه، وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا، وأبناءنا، فانهه، فإنْ أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه فى داره فعل، وإن أبى

(١) برْك الغماد: بفتح الباء، وسكون الراء: إقليم باليمن على ساحل البحر.
(٢) الدغنة: بضمتين وتشديد الدال والنون، وبفتح فكسر.
(٣) لا يَخرج- ولا يُخرج: الأولى بالبناء للفاعل، والثانية بالبناء للمفعول.
(٤) أى ضامن، وناصر.
(٥) أى رجعت عن أذى «أبى بكر» لنصرة «ابن الدغنة» له.

فسله أن يردّ إليك ذمتك[١]، فإنا قد كرهنا أن نُخْفرك[٢]، ولسنا مقرين لأبى بكر الاستعلان، فأتى ابن الدغنة إلى أبى بكر فقال: قد علمت ما عقدت لك عليه فإما أن تقتصر على ذلك، وإما أن ترجع إلىّ ذمّتى، فإنى لا أحب أن تسمع العرب أنى أخفرت فى رجل عقدت له، فقال أبو بكر: فإنى أردّ لك جوارك، وأرضى بجوار الله عز وجل... اهـ

تقول «أم المؤمنين»: والنبى ﷺ يومئذ بمكة، فقال النبى ﷺ للمسلمين: «إنى أريتُ دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين، وهما الحرّتان، فهاجر من هاجر قبل المدينة[٣]، ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة، وتجهز أبو بكر قبل المدينة، فقال له رسول الله ﷺ: «على رسلك[٤]، فإنى أرجو أن يؤذن لى» فقال أبو بكر: وهل ترجع ذلك بأبى أنت وأمى؟ قال: نعم، فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه، وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السّمُر وهو الخبط أربعة أشهر... اهـ[٥].

وعن «عائشة» أم المؤمنين -رضى الله عنها- قالت:

بينما نحن جلوس يوماً فى بيت أبى بكر فى نحر الظهيرة قال قائل لأبى بكر: هذا رسول الله متقنعا، فى ساعة لم يكن يأتينا فيها.

فقال أبو بكر: فداء له أبى وأمى، والله ما جاء به فى هذه الساعة إلا أمر.

فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن، فأذن له، فدخل، فقال لأبى بكر: أخرج مَن عندك.

فقال: إنما هم أهلك بأبى أنت يا رسول الله.

قال: «فإنى قد أذن لي فى الخروج»[٦].

فقال أبو بكر: الصُّحبة بأبى أنت يا رسول الله.

قال رسول الله ﷺ : «نعم».

---

(١) أى فسله أن يردّ إليك جوارك، وضمانك.
(٢) نخفرك: أى ننقض عهدك.
(٣) أى جهة المدينة المنورة.
(٤) أى تمهل ولا تعجل.
(٥) رواه البخارى، انظر: التاج جـ ٣ ص ٢٦٣.
(٦) أى الهجرة.

قال أبو بكر: فخذ يا رسول الله إحدى راحلتى هاتين.

قال رسول الله ﷺ : «بالثمن».

قالت «عائشة» : فجهزناهما أحبَّ الجهاز، وصنعنا لهما سفرة فى جراب، فقطعت أسماء أختى قطعة من نطاقها، فربطت به على فم الجراب، فبذلك سميت ذات النطاقين، قالت: ثم لحق رسول الله ﷺ، وأبو بكر، بغار فى جبل ثور فكمنا فيه ثلاث ليال، يبيت عندهما عبد الله بن أبى بكر، وهو شاب ثقف لقن[١]، فيدلج من عندهما بسحر[٢] ، فيصبح مع قريش بمكة كبائت بها، فلا يسمع بأمر يُكادان به، إلا دعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام، ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبى بكر، منحة من غنم، فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء، فيبيتان فى رسل وهو لبن منحتهما، ورضيفهما، حتى ينعق بها عامر بغلس، يفعل ذلك فى كل ليلة من تلك الليالى الثلاث.

واستأجر رسول الله ﷺ ، وأبو بكر رجلا من بنى الدّيل هاديا خرّيتا[٣]، قد غمس حلفا فى آل العاص بن وائل السّهْمى[٤]، وهو على دين كفار قريش، فأمّناه، فدفعا إليه راحلتيهما، ووعداه غار ثور بعد ثلاث ليال، فأتاهما براحلتيهما صبح ثلاث، وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليلُ فأخذ بهم طريق السواحل» اهـ[٥].

وقال سراقة بن مالك بن جُعشم الـمُدْلجىّ:

«جاءنا رسل كفار قريش يجعلون فى رسول الله ﷺ، وأبى بكر، دية كل واحد منهما[٦]، لمن قتله، أو أسره، فبينما أنا جالس فى مجلس مع قومى: بنى مدلج إذ أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس، فقال: يا سراقة إنى قد رأيت آنفا أسْودة بالساحل أراها «محمداً» وأصحابه.

---

(١) ثقف لقن: أى حاذق سريع الفهم.

(٢) فيدلج: أى يخرج.

(٣) وكان اسمه «عبد الله بن أريقط» كان هاديا خريتا: أى ماهراً على الطرق.

(٤) وكان قد غمس حلفا فى «آل العاص» أى عقد تحالفًا معهم، وكانوا إذا تحالفوا غمسوا أيديهم فى شىء ملون تأكيدا للتحالف.

(٥) رواه البخارى، انظر: التاج الجامع للأصول فى حديث الرسول جـ٣ ص٢٦٦.

(٦) وهى مائة ناقة.

قال سراقة: فعرفت أنهم هم، فقلت: إنهم ليسوا بهم، ولكنك رأيت فلانا وفلانا، انطلقوا بأعيننا، ثم لبثت فى المجلس ساعة، ثم قمت فدخلت فأمرت جاريتى أن تخرج بفرسى وهى من وراء أكمة[١]، فتحبسها عليّ، وأخذت رمحى فخرجت من ظهر البيت، فحططت بزجه الأرض وخفضت عاليه[٢]، حتى أتيت فرسى فركبتها فرفعتها[٣]، تقرّب بى حتى دنوت منهم، فعثرت بى فرسى، فخررت عنها، فقمت فأخذت من كنانتى الأزلام[٤]، فاستقسمت بها أضرهم أو لا؟ فخرج الذى أكره، فعصيت الأزلام، وركبت فرسى تقرّب بى حتى إذا سمعت قراءة رسول الله وهو لا يلتفت، وأبو بكر يكثر الالتفات ساخت يدا فرسى فى الأرض حتى بلغتا الركبتين، فخررت عنها، ثم زجرتها فنهضت فلم تكد تخرج يديها فلما استوت قائمة إذا لأثر يديها غبار ساطع فى السماء مثل الدخان، فاستقسمت بالأزلام، فخرج الذى أكره، فناديتهم بالأمان، فوقفوا، فركبت فرسى حتى جئتهم ووقع فى نفسى حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله ﷺ فقلت له:

إن قومك قد جعلوا فيك الدّية وأخبرتهم بما يريد الناس بهم، وعرضت عليهم الزاد والمتاع فلم يرزآنى[٥]، ولم يسألانى إلا أن قال: أخْفِ عنا، فسألته أن يكتب لى كتاب أمْن، فأمر عامر بن فهيرة فكتب فى رقعة من أديم[٦].

ثم مضى رسول الله ﷺ ... اهـ[٧].

وقال ابن شهاب: إن رسول الله لقي الزبير فى ركب من المسلمين كانوا تجاراً قافلين من الشام، فكسا الزبير النبى ﷺ وأبا بكر، ثياباً بيض، وسمع المسلمون بالمدينة بمخرج رسول الله ﷺ من مكة، فكانوا يغدون كل غداة إلى «الحرّة» فينظرونه، حتى يردّهم حرّ الظهيرة، فانقلبوا يوماً بعدما أطالوا انتظارهم، فلما آووا إلى بيوتهم أوفى رجل من يهود على أطم من آطامهم[٨]، لأمر ينظر إليه فبصُر برسول الله ﷺ وأصحابه، مبيّضين، يزول بهم السراب[٩]، فلم يملك اليهودىّ أن قال بأعلى صوته: يا معشر العرب هذا جدكم الذى

(١) أكمة: أى رابية مرتفعة.
(٢) أى خفضت أعلاه وجررت بزجه على الأرض تسترا من قومى.
(٣) أى أسرعت بها السير.
(٤) أى أخذت الأزلام من كنانتى وهى كيس السهام والأزلام.
(٥) أى لم يأخذا شيئًا.
(٦) وفى رواية من «أدم» أى جلد مدبوغ.
(٧) رواه البخارى، انظر: التاج جـ٣ ص ٢٦٧.
(٨) أى طلع على حصن من حصونهم.
(٩) السراب: الذى يرى فى الحرّ من بعد كأنه ماء وليس بماء.

تنتظرونه، فثار المسلمون إلى السلاح[١]، فتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحرّة فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم فى بنى عمرو بن عوف، وكان ذلك يوم الإثنين من شهر ربيع الأول، فقام أبو بكر للناس[٢]، وجلس رسول الله ﷺ صامتاً، فطفق من جاء من الأنصار ممن لم ير رسول الله ﷺ يحيى أبا بكر حتى أصابت الشمس رسول الله ﷺ، فأقبل أبو بكر حتى ظلّل عليه بردائه، فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك، فلبث رسول الله ﷺ فى بنى عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة، وأسس المسجد الذى أسس على التقوى، وصلى فيه رسول الله ﷺ، ثم ركب راحلته فسار يمشى معه الناس حتى بركت عند مسجد الرسول - عليه الصلاة والسلام - بالمدينة، وهو يصلّى فيه يومئذ رجال من المسلمين، وكان مِرْبداً للتمر لسهيل وسَهْل غلامين يتيمين فى حِجْر أسعد بن زرارة.

فقال رسول الله ﷺ حين بركت به راحلته: هذا - إن شاء الله - المنزل، ثم دعا رسول الله ﷺ الغلامين فسار معهما بالمرْبد ليتخذه مسجداً، فقالا: « لا »، بل نهبه لك يا رسول الله، فأبى رسول الله ﷺ أن يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما، ثم بناه مسجداً، وطفق رسول الله ﷺ ينقل معهم اللبِن فى بنيانه ويقول وهو ينقل اللبن:

هذا الحِمال لا حمال خيْبَرْ ... هذا أبرّ ربّنا وأطهره

اللهم إن الأجر أجر الآخرة ... فارحم الأنصار والمهاجرة

فتمثل بشعر رجل من المسلمين لم يسمّ لى، قال ابن شهاب: ولم يبلغنا فى الأحاديث أن رسول الله ﷺ تمثل ببيت شعر تام غير هذه الأبيات...اهـ[٣].

- والله أعلم -

تم ولله الحمد

---

(١) أى أسرعوا إلى السلاح فتقلدوه.

(٢) أى يستقبلهم ويحييهم نيابة عن النبى -صلى الله عليه وسلم.

(٣) رواه البخارى، انظر: التاج جـ٣، ص ٢٦٩.

فهرس الموضوعات

الموضـــوع	الصفحة

الموضــــوع	الصفحة

تم فهرس الموضوعات

ولله الحمد والشكر،،،

شيوخ المؤلف

حفظ المؤلف القرآن، وجوّده، وتلقى علوم القرآن، والقراءات، والعلوم الشرعية والعربية، عن خيرة علماء عصره.

وهـم :

- حفظ القرآن الكريم على الشيخ: محمد السيد عَزَب.
- جود القرآن الكريم على كل من الشيخ: محمد محمود، والشيخ: محمود بكر.
- أخذ القراءات علميا عن كل من الشيخ: عبد الفتاح القاضى، والشيخ: محمود دعبيس.
- أخذ القراءات عمليا وتطبيقيا عن الشيخ: عامر السيد عثمان.
- أخذ رسم القرآن وضبطه عن الشيخ: أحمد أبو زيت حار.
- أخذ عدّ آى القرآن عن الشيخ: محمود دعبيس.
- أخذ توجيه القراءات عن الشيخ: محمود دعبيس.
- أخذ الفقه الإسلامى عن كل من الشيخ: أحمد عبد الرحيم والشيخ: محمود عبد الدايم.
- أخذ أصول الفقه عن الشيخ: يس سويلَم.
- أخذ التوحيد عن الشيخ: عبد العزيز عبيد.
- أخذ المنطق عن الشيخ: صالح محمد شرف.
- أخذ تاريخ التشريع الإسلامى عن الشيخ: أنيس عبادة.
- أخذ التفسير عن كل من الشيخ: خميس محمد هيبة، والشيخ: كامل محمد حسن.
- أخذ الحديث وعلومه عن الشيخ: محمود عبد الغفار.
- أخذ دراسة الكتب الإسلامية عن الشيخ: محمد الغزالى.
- أخذ النحو والصرف عن كل من الشيخ: خميس محمد هيبة، والشيخ: محمود حبلص، والشيخ: محمود مكّاوى.
- أخذ علوم البلاغة عن كل من الشيخ: محمود دعبيس، والشيخ: محمد بحيرى.
- أخذ فقه اللغة عن الدكتور حسن ظاظا.
- أخذ أصول اللغة عن الدكتور حسن السيد عون.
- أخذ مناهج البحث العلمى عن الدكتور عبد المجيد عابدين.
- أشرف عليه فى رسالة الماجستير الدكتور أحمد مكى الأنصارى.
- أشرف عليه فى رسالة الدكتوراه الدكتور عبد المجيد عابدين، أكرمه الله.

المؤلف

– ولد بقرية الروضة، مركز فاقوس، محافظة الشرقية بمصر، سنة ١٩٢٩ ميلادية.

– حفظ القرآن الكريم، وجوّده فى بداية حياته.

– التحق بالأزهر الشريف بالقاهرة، ودرس: العلوم الشرعية، والإسلامية، والعربية، والقراءات القرآنية المتواترة: السبع والعشر، والعلوم المتصلة بالقرآن الكريم مثل: رسم القرآن، وضبط القرآن، وعدّ آى القرآن.

– **حصل على:** التخصص فى القراءات، وعلوم القرآن، والليسانس فى الدراسات الإسلامية والعربية، والماجستير فى الآداب العربية، والدكتوراه فى الآداب العربية.

النشاط العلمى العملى:

أولا: عيّن مدرسًا بالأزهر عام ١٩٥٢م، وقام بتدريس: تجويد القرآن الكريم، القراءات القرآنية، وتوجيهها، الفقه الإسلامى: العبادات، تاريخ التشريع الإسلامى، تفسير القرآن الكريم، علوم القرآن الكريم، طبقات المفسرين، ومناهجهم، النحو العربى، تصريف الأسماء والأفعال، البلاغة العربية.

ثانيًا: عين عضواً بلجنة تصحيح المصاحف بالأزهر سنة ١٩٥٦م.

ثالثًا: عين عضواً ضمن اللجنة العلمية التى تشرف على تسجيل القرآن الكريم بالإذاعة المصرية سنة ١٩٦٥م.

رابعًا: ناقش وأشرف على أكثر من مائة رسالة علمية (ماجستير، ودكتوراه).

خامسًا: شارك فى ترقية عدد من الأساتذة إلى أستاذ مساعد، وأستاذ.

سادسًا: له أحاديث دينية بالإذاعة السودانية تزيد على مائة حديث.

سابعًا: له أحاديث دينية اسبوعية بإذاعة القرآن الكريم بالمملكة العربية السعودية تزيد على ألف حديث.

ثامنًا: انتدب للتدريس بالسودان بجامعتى الخرطوم والجامعة الإسلامية بأم درمان، وبالمملكة العربية السعودية بجامعتى الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض وأبها، والجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

الإنتاج العلمى:

بعون من الله – تعالى – صنّف أكثر من تسعين كتابًا فى جوانب متعددة:

١ – القراءات والتجويد.

٢ – التفسير وعلوم القرآن.

٣ – الفقه الإسلامى والعبادات.

٤ – المعاملات.

٥ – الإسلاميات والفتاوى.

٦ – السيرة.

٧ – النحو والصرف.

٨ – اللغويات.

٩ – الغيبيات والمأثورات.

١٠ – الدعوة.

١١ – التراجم.

مذهبه الفقهى : الشافعى.

عقيدته : أهل السنة والجماعة.

منهجه فى الحياة : كان منهجه فى الحياة التمسك بالكتاب والسنة ما استطاع لذلك سبيلا.

توفى : يوم السبت الموافق: الحادى عشر من صفر ١٤٢٢هـ – الخامس من مايو ٢٠٠١م.

دعاؤه : اللهم إنى أسالك رضاك والجنة وأعوذ بك من سخطك والنار.

وصلِّ اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ...

مصنفات المؤلف

القراءات والتجويد:

١ - إرشاد الطالبين إلى ضبط الكتاب المبين.
٢ - الإرشادات الجليّة فى القراءات السبع من طريق الشاطبية «ثلاثة أجزاء».
٣ - الإفصاح عما زادته الدرة على الشاطبية «جزءان».
٤ - التذكرة فى القراءات الثلاث وتوجيهاتها من طريق الدرة «جزءان».
٥ - التبصرة عما زادته الطيبة على الشاطبية والدرة.
٦ - التوضيحات الجلية - شرح المنظومة السخاوية.
٧ - التوضيحات الجلية فى القراءات السبع وتوجيهاتها من طريق الشاطبية.
٨ - الرائد في تجويد القرآن.
٩ - الرسالة البهية فى قراءة أبى عمر الدورى.
١٠ - الفتح الربانى فى علاقة القراءات بالرسم العثمانى.
١١ - القراءات وأثرها فى علوم العربية «جزءان».
١٢ - القول السديد فى الدفاع عن قراءات القرآن المجيد فى ضوء الكتاب والسنّة.
١٣ - الكامل فى القراءات العشر المتواترة من طريقَى الشاطبية والدرة.
١٤ - المبسوط فى القراءات الشاذة «جزءان».
١٥ - المجتبى فى تخريج قراءة أبى عمر الدورى.
١٦ - المختار - شرح الشاطبية فى القراءات السبع مع توجيه القراءات.
١٧ - المستنير فى تخريج القراءات من حيث اللغة، والإعراب، والتفسير «ثلاثة أجزاء».
١٨ - المصباح فى القراءات السبع وتوجيهها من طريق الشاطبية.
١٩ - المغنى فى توجيه القراءات العشر المتواترة «ثلاثة أجزاء».
٢٠ - المهذب فى القراءات العشر وتوجيهها من طريق طيبة النشر «جزءان».
٢١ - النجوم الزاهرة فى القراءات العشر المتواترة وتوجيهها من طريقى الشاطبية والدرة.
٢٢ - الهادى - شرح طيبة النشر فى القراءات العشر والكشف عن علل القراءات وتوجيهها «ثلاثة أجزاء».
٢٣ - الأشباه والنظائر فى توجيه القراءات.
٢٤ - تهذيب إتحاف فضلاء البشر فى القراءات الأربع عشر..
٢٥ - شرح تحفة الأطفال والجزرية لبيان الأحكام التجويدية.
٢٦ - شرح المنظومة السخاوية فى متشابهات القراءات القرآنية.
٢٧ - شرح طيبة النشر فى القراءات العشر.
٢٨ - فى رحاب القراءات.
٢٩ - مرشد المريد إلى علم التجويد.
٣٠ - القراءات السبع الميسرة.

التفسير وعلوم القرآن :

١ - الهادى إلى تفسير غريب القرآن.
٢ - إعجاز القرآن.
٣ - إعجاز وبلاغة القرآن.
٤ - أعلام حفّاظ القرآن الكريم (سلسلة أحاديث).
٥ - البرهان فى إعجاز وبلاغة القرآن.
٦ - الروايات الصحيحة فى أسباب النزول والناسخ والمنسوخ.
٧ - الكشف عن أسرار ترتيب القرآن.
٨ - اللؤلؤ المنثور فى تفسير القرآن بالمأثور «ستة أجزاء».
٩ - تاريخ القرآن.
١٠ - روائع البيان فى إعجاز القرآن.
١١ - طبقات المفسرين ومناهجهم.
١٢ - فتح الرحمن الرحيم فى تفسير القرآن الكريم (أربعة عشر جزءاً).
١٣ - فتح الملك المنان فى علوم القرآن «ثلاثة أجزاء».
١٤ - فتح الرحمن فى أسباب نزول القرآن.
١٥ - فضل قراءة بعض آيات وسور من القرآن مؤيداً بسنة النبى ﷺ.
١٦ - فى رحاب القرآن الكريم «جزءان».
١٧ - فى رياض القرآن (سلسلة أحاديث).
١٨ - معجم حفاظ القرآن الكريم عبر التاريخ «جزءان».
١٩ - معجم علوم القرآن «ثلاثة أجزاء».
٢٠ - من وصايا القرآن الكريم.

فقه وعبادات :

١ - أثر العبادات فى تربية المسلم.
٢ - أحكام الطهارة والصلاة فى ضوء الكتاب والسنّة «جزءان».
٣ - الإرشادات إلى أعمال الطاعات.
٤ - الترغيب فى الأعمال المشروعة فى ضوء الكتاب والسنّة.
٥ - الحج والعمرة وأثرهما فى تربية المسلم وأحكام قصر الصلاة وجمعها فى السفر.
٦ - الحدود فى الإسلام فى ضوء الكتاب والسنّة والكشف عن حكمة التشريع الإسلامى من إقامتها.
٧ - الصلاة فى ضوء الكتاب والسنّة وأثرها فى تربية المسلم.
٨ - الصيام أحكامه وآدابه وفضائله وأثره فى تربية المسلم.
٩ - فقه الكتاب والسنّة.
١٠ - العبادات وأثرها فى تربية المسلم فى ضوء الكتاب والسنّة.
١١ - الفضائل من الأعمال التى تقرب من الله تعالى.
١٢ - المحرمات فى ضوء الكتاب والسنّة.
١٣ - تأملات فى أثر العبادات، وأعمال الطاعات فى تربية المسلمين والمسلمات.
١٤ - أركان الإسلام.

معاملات :

١ - الأسرة السعيدة فى ظل تعاليم الإسلام.
٢ - الحق أحق أن يُتَّبع.
٣ - حقوق الإنسان فى الإسلام.
٤ - حكمة التشريع الإسلامى.
٥ - نظام الأسرة فى الإسلام.

تراجم :

١ - أبو عبيد القاسم بن سلام، حياته وآثاره اللغوية.
٢ - أبو بكر محمد بن القاسم الأنبارى، حياته وآثاره.
٣ - تراجم لبعض علماء القراءات.

إسلاميات وفتاوى :

١ - أنت تسأل والإسلام يجيب.
٢ - الثقافة الإسلامية فى ضوء الكتاب والسنّة.
٣ - السراج المنير فى الثقافة الإسلامية.
٤ - فى رحاب الإسلام.

سيرة :

١ - الأنوار الساطعة على دلائل نبوة سيدنا محمد ﷺ، وأخلاقه الكريمة الفاضلة فى ضوء الكتاب والسنّة.
٢ - الخصائص المحمدية والمعجزات النبوية فى ضوء الكتاب والسنّة.

نحو وصرف :

١ - النحو الميسّر.
٢ - تصريف الأفعال والأسماء (فى ضوء أساليب القرآن).
٣ - توضيح النحو.
٤ - معجم قواعد النحو، وحروف المعانى.

اللغــويات :

١ - أحكام الوقف والوصل فى العربية.
٢ - الكشف عن أحكام الوقف والوصل فى العربية.
٣ - المقتبس من اللهجات العربية والقرآنية «ثلاثة أجزاء».

الغيبيات والمأثورات :

١ - حديث الروح فى ضوء الكتاب والسنّة.
٢ - الأدعية المأثورة عن الهادى البشير ﷺ.
٣ - التبصرة فى أحوال القبور، والدار الآخرة.
٤ - الدعاء المستجاب فى ضوء الكتاب والسنّة.
٥ - موضوعات إسلامية فى ضوء الكتاب والسنّة «جزءان».

الدعــوة :

١ - أحاديث دينية وثقافية فى ضوء الكتاب والسنّة.
٢ - الترغيب والتحذير فى ضوء الكتاب والسنّة.
٣ - الدعوة إلى وجوب التمسك بتعاليم الإسلام.
٤ - ديوان خطب الجمعة وفقا لتعاليم الإسلام.
٥ - سبيل الرشاد فى ضوء الكتاب والسنّة.
٦ - فى رحاب السنّة المطهرة، سراج لكل واعظ ومرشد وخطيب.
٧ - منهج الأنبياء فى الدعوة إلى الله.
٨ - وصايا ومواعظ فى ضوء الكتاب والسنّة.

التحقيق والتصحيح :

١ - النشر فى القراءات العشر لابن الجزرى (تحقيق).
٢ - شرح الطيبة لابن الناظم (تحقيق).
٣ - المغنى لابن قدامة (تحقيق).
٤ - حاشية العلامة الصبان على تفسير الجلالين (٤ أجزاء) (تصحيح).
٥ - نور الأبصار فى مناقب آل بيت النبى المختار (تصحيح).
٦ - إسعاف الراغبين فى سيرة المصطفى ﷺ وفضائل أهل بيته الطاهرين (تصحيح).

كلمة الناشر

اقرأ الحمد لله الذى أضاء بها الكون، فقال - تعالى - :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾ .

والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد ﷺ القائل :

«طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة»

وبعد ...

فإن خير الأعمال وأجلّها عمل يصل الإنسان بربه، فينال به الرضا والغفران، كما قال - عز وجل - : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾.

وانطلاقًا من هذا الوعد كانت «**دار محيسن للطباعة والنشر والتوزيع**» برًا بصاحب هذا الاسم - رحمه الله تعالى -.

قال ﷺ : «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقةٍ جاريةٍ، وعلمٍ يُنتفع به، وولدٍ صالحٍ يدعو له»

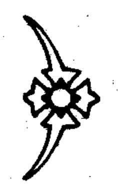
هدفنا ● أن نصل إلى عقل وقلب ووجدان القارئ المسلم.

● أن نساهم فى نشر العلوم الدينية بصورة مشرقة.

● أن نساعد فى إعداد أجيال مسلمة تتفهم حقيقة دينها.

● أن نتابع نشرمؤلفات **الأستاذ الدكتور/ محمد سالم محيسن** - رحمه الله -.

وسيلتنا استخدام التقنيات الحديثة فى الطباعة والنشر.



هذه أهدافنا، وهذا طريقنا، والاستمرار والانتشار سيكونان

بفضل الله - تعالى - ثم بفضلك أيها القارئ العزيز.

